بلزاك

خاتم سليمان

رواية

تقديم ومراجعة

خالد عوض

الكتاب: خاتم سليمان (رواية)

الكاتب: بلزاك

تقديم ومراجعة: خالد عوض

الطبعة: ٢٠٢٣

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم –
الجيزة - جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٦ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com **E-mail: info@bookapa.com**

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

بلزاك

خاتم سليمان (رواية)/ بلزاك, تقديم ومراجعة: خالد عوض

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢١٧ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٨ – ٦٢٤ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٢٣٤٨٦ / ٢٠٢٢

خاتم سليمان

رواية

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

مقدمة

كان الروائي الفرنسي الأشهر "أونوريه دو بلزاك" هو أول من قام بتوظيف القصة الخيالية في توثيق مظاهر الحياة في مجتمعه في فترة تاريخية معيّنة، لهذا قيل أنه أبرز مؤسسي الواقعية الاجتماعية، وهي التيار الأدبي الرئيسي الذي ينتمي إليه معظم كتّاب الرواية في العالم.

وترجع الواقعية الاجتماعية عند بلزاك إلى وصفه شديد الدقة للشخصيات والأماكن التي تدور فيها الأحداث، فقد كان مؤمنا بأن "العمل الروائي العظيم يكمن في التفاصيل": مثلاً، شكل الغرفة وأثاثها وألوانها وما إن كان المقعد يميل قليلاً لأن إحدى أرجله أقصر من البقية، وعلى أي هيئة كانت ثياب المتحدث عنه وما إن كان خيط تائه يتدلى من كُم قميصه... الخ.

وكان بلزاك يعتقد أن إغراقه في نقل دقائق مسرح الأحداث وإسهابه في وصف شخوصه مهمّان لنفخ الروح في قصصه لأن مهمتها الأولى والأخيرة هي نقل صورة أمينة للوجود الإنساني على أرض الواقع.

ولأنه كان يؤمن بأن الوجود الإنساني مدعاة للحزن والتشاؤم أكثر منها للفرح والتفاؤل فقد نُفيت عنه صفة الرومانسية التي ألحقها البعض به. فقال عنه مواطنه إميل زولا إنه "طبيعي بامتياز" ورفعه إلى مقام "أبو

الرواية الطبيعية". وبرر ذلك بقوله إن الرومانسيين ينظرون إلى العالم عبر عدسة ملوّنة، بينما ينظر إليه بلزاك عبر عدسة صافية لا لون لها.

والحقيقة أن بلزاك اهتم في قصصه بعنصرين، هما الجوهر المظلم الكامن في الطبيعة البشرية، وما كان يعتبره "التأثير الفاسد للطبقات الوسطى والعليا في المجتمع". وهما أمران لم يحتاجا منه أكثر من أن يخرج إلى الطرقات وأن يراقب الناس وما يفعلون ليعود بالمواد الخام لرواياته.

وتبعاً لنقاده فقد تبدل منظور بلزاك عبر الزمن من اليأس إزاء ظلمة الوجود الإنساني إلى التضامن في الظلمة.. ولكن ليس إلى حد التفاؤل بالمخرج. وقد أشاروا إلى التبدل التدريجي الذي حدث بين أهم رواياته الأولى وهي "جِلد الأحزان" التي تعكس صورة متشائمة للواقع الحافل بالخراب والفوضى، وروايات لاحقة مثل "أوهام ضائعة" التي تفيض بالتعاطف مع أولئك الذين همّشهم المجتمع وأفقدهم القدرة على المساهمة الإيجابية في تقدمه. وقد حدث لأن بلزاك عزز قناعته بأن الرواية هي "أفضل تعبير للديمقراطية الأدبية" كونها "تُكتب للجميع بغض النظر عن المقام الطبقي للمتلقي".

وقد كانت واقعية بلزاك ضمن أبرز العوامل المؤثرة في مختلف الكتاب، سواء أولئك الذين عاصروه أو الذين جاءوا بعد زمانه بمن فيهم كتاب يعتبرون من أعمدة الأدب الغربي الذي وضع بدوره بصماته الواضحة في آداب الشعوب الأخرى، كالعربية حيث تجد نجيب محفوظ مثالاً وليس حصراً.

وحتى جوستاف فلوبير، الذي بلغ هجومه على بلزاك حد أن وصمه بالجهل باللغة، تأثر بواقعيته حتى قيل إن "فلوبير أكمل في صرح الأدب الفرنسي ما بدأه بلزاك". وبالمثل هاجم مارسيل بروست بلزاك بسبب ما اعتبره "سوقية" كتاباته على رغم الأثر الواضح الذي خلّفه على كتابات بروست نفسها وأشهرها "البحث عن الزمن الضائع".

وكثيراً ما يقارن بلزاك بتشارلز ديكنز من جهة التأثير الهائل الذي أحدثه كلاً من الكاتبين على الأدب الأوروبي خصوصاً والعالمي عموماً، فقيل عن بلزاك إنه "ديكنز الفرنسي" وعن ديكنز إنه "بلزاك الإنجليزي".

وهناك أيضاً الكاتب الأمريكي البريطاني هنري جيمس الذي يعتبرونه بمثابة الجسر بين واقعية بلزاك الاجتماعية والواقعية الحديثة، وهو أحد أهم الأعمدة التي يقوم عليها اليوم الأدب المكتوب بالإنجليزية بروايات مثل "صورة سيدة" و"السفراء" و"جناحا الحمامة". فهو يقول: "ما تلقيته من المعلم الأكبر (بلزاك) عن صنعة الكتابة القصصية يفوق ما تلقيته من أي شخص آخر".

ويمكن القول إن تأثير بلزاك وتياره الواقعي على الروائيين استمر طوال الفترة من نهاية الثلث الأول للقرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين، ولم يفقد عرشه إلا بعد أن أدهشت أميركا اللاتينية العالم بنوع جديد من الفن القصصي هو "الواقعية السحرية".

سيرة حياته

ولد أونوريه دو بلزاك في العشرين من شهر مايو ١٧٩٩ بمدينة تور جنوبي باريس، ونشأ في عهد الإمبراطورية الأولى معجباً بنابليون فصار طموحه أن يصبح "نابليون القلم". مع ذلك فقد كان ثلثا أعماله القصصية يدوران في وقت لاحق لسقوط بطله في ١٨١٥.

وقد أراد له والداه أن ينخرط في السلك القانوني ويمارس المحاماة، لكنه توصل إلى اتفاق معهما يسمح له بتجريب يده في الكتابة الأدبية لفترة سنة يتكفلان فيها بدعمه مالياً. فانتقل إلى باريس لكنه أخفق في العيش من قلمه. وفي الفترة ١٨٢٥ – ١٨٢٧ خاض في دنيا التجارة والأعمال كناشر وصاحب مطبعة لكنه أخفق حتى في مسعاه إلى البقاء على السطح.

وهناك تراكمت ديونه حتى بلغت ستين ألف فرنك خاصة أنه كان مولعاً بأطايب العيش من مأكل ومشرب وملابس غالية واقتناء ما لا يُتاح الا للميسورين. ولذا صار مضطراً للكتابة بين ١٤ و١٨ ساعة في اليوم على حساب صحته المتدهورة على رغم بنيته الجسدية الضخمة، ومعتمداً إلى حد كبير على دعم والدته وسلسلة غير صغيرة من عواجيز سيدات المجتمع المخملي.

وفي ١٨٣٢ أقام بلزاك علاقة مع الأرملة الكونتيسة البولندية، إيفلين هانسكا، وظل يبادلها الرسائل بانتظام على مدى ١٣ سنة. لكنه كان غير قادر على الزواج منها لأنها، من جهتها، كانت غارقة إلى أذنيها في

المشكلات القانونية المتعلقة بورثتها من زوجها الراحل.

ولم يتبدل هذا الوضع إلا في ١٨٥٠ عندما جمع بلزاك من المال ما يكفي لحل مشكلاته ومشكلاتها معاً فتزوجها في ١٤ مارس ١٨٥٠. على أن زواجه لم يدم لأكثر من خمسة أشهر قضى معظمها في سرير المرض. وقيل إنه لما أحس بدنو أجله أصر على أن يُستدعى له الطبيب بيانشون. وبعد التحري عن هذا الطبيب اتضح أنه شخصية خيالية ابتدعها بلزاك نفسه في روايته "الأب جوريو".

وقد توفي بلزاك في الثامن عشر من شهر أغسطس ١٨٥٠ ودفن في مقبرة بير لاشيز بباريس، وتلا مرثية وداعه فيكتور هوجو الذي قال إن الأمة الفرنسية فقدت بموته أحد أبنائها العباقرة.

هوس الكتابة

يُعتبر بلزاك، أحد كبار الكتّاب الواقعيين في تاريخ الأدب الفرنسي، بل إنه رائد الواقعية الاجتماعية الأكبر في كل آداب العالم قاطبة. فروايته الأساسية "الكوميديا البشرية" بأجزائها العديدة، والتي قدم فيها ما يزيد عن ألفي شخصية، صورها في ألآف المواقف ومئات العلاقات، ما يضع القارئ مباشرة في صلب القضية الاجتماعية.، لذلك أصبحت دراسة واقعية بلزاك وتحليله للمجتمع جزءاً أساساً من الدراسات الأدبية والاجتماعية في فرنسا.

تلك حقيقة التأكيد عليها أدى إلى إغفال جانب آخر لا يقل أهمية من إبداع بلزاك، وهو الجانب الفانتازي، فإذا كان بلزاك قد وصل إلى

ملايين القراء عبر عشرات الروايات الواقعية والاجتماعية، فإنه عرف أيضاً كيف يصل إليهم عبر روايات فانتازية، لا تقل قوة عن تلك، بل تزيد عنها قيمة من حيث ترفيهيّتها، فضلا عن قدرتها على كشف ذلك القدر الكبير من الخيال الجامح الذي كان يتمتع به هذا الكاتب العبقري.

بدأت هذه المرحلة الفانتازية في أدب بلزاك مع بلوغه الثلاثين من العمر، حين أصدر روايته الكبيرة الأولى "الجلد المحبّب" التي لاقت نجاحا كبيرا دفعه إلى البدء في كتابة رواياته الفانتازية التالية، فتوالت أعماله في هذا الاتجاه ومنها : "لوي لامبير" (١٨٣٢)، و "البحث عن المطلق" (١٨٣٤)، و "سيرافينا" (١٨٣٥).

وكان بلزاك حريصا على أن يصنف هذه الأعمال تحت عنوان "دراسات فلسفية"، وقد أوضح أن هدفه من كتابتها لم يكن مجرد سرد حكايات عجائبية بل ملامسة الظواهر الغريبة التي تعتري الإنسان من بعيد أو من قريب، بهدف أن "تقود قارئها إلى عوالم أحلام اليقظة الفلسفية".

وهذا دفع نقاده إلى القول بأن غاية بلزاك من هذه الأعمال تمثلت في دفع قارئه إلى التفكير والتأمل، مميزاً بهذا موقفه عن موقف الكتاب الغرائبيين الإنجليز الذين عمدوا أساسا إلى "التلاعب بأفكار القارئ وأعصابه" من خلال تفاعله مع أعمالهم.

وقد دفعته رغبته في مقاومة شبح الفقر إلى الدخول في عدة مشروعات في مجال النشر وفي مجالات أخرى، لكنه لم ينجح في أي منها، فتراكمت عليه الديون التي أثقلت كاهله فقضى عمره كله مطاردا من

الدائنين، وبذلك كان الضغط الخارجي لمتاعبه المالية يزيد من الحرارة الداخلية لخياله ولقوة رؤياه مما جعله يعمل دون راحة وبسرعة، بحيث لم يكن يستطيع أن يحسن ويصقل رواياته التي كانت تتضاعف بسرعة، ونظراً لأنه كان مضطراً دائماً لمواجهة التزامات مالية ضخمة فقد كان عليه أن يدرس لا مشكلة المال فحسب بل أيضاً ذلك المجتمع الذي يقوم على المال وعلى أشد أنواع الصراع الاقتصادي ضراوة.

ولهذا السبب تعمق بلزاك أكثر من أي كاتب من معاصريه في دراسة العالم الذي قام في أعقاب الخراب الذي نجم عن الثورة الفرنسية، عالم البرجوازية المنتصرة الذي قوم بالمال كل شيء بما في ذلك عقله وروحه، في هذا العالم، عالم «الأنانية المتحجرة» نشأت نماذج جديدة تماماً وعلاقات جديدة وقضايا جديدة وقوانين اجتماعية جديدة، ولقد كان عمل بلزاك هو أول ملحمة عظمية حاولت أن تبين وتغير هذه الأشكال المتغيرة، وقد تعجب دارسوه من قدرته على كتابة كل هذا العدد من الكتب المتنوعة في عمر قصير، فقد مات وهو في الواحدة والخمسين من العمر، أي أنه أنتج تسعين كتابا في أقل من ثلاثين سنة هي كل عمره الأدبي، فلم يجدوا تفسيرا إلى أن كتابته كانت نوعا خاصا من الهوس أسموه " هوس الكتابة".

وبلغ هذا الهوس ذروته في الفترة من ١٨٣٢ حتى ١٨٣٥، فقد أصدر في ثلاث سنوات فقط عشرين مجلدا تحت عنوان واحد هو " الكوميديا الإنسانية"، وفي تلك الروايات تصادف حشداً من الشخصيات تلعب دوراً رسمه لها بلزاك، من رواية إلى أخرى، ويخرج القارئ بإحساس أنه أمام عالم متكامل متشابك المصالح، متواتر الأحداث، تمثل كل رواية جانباً

من حياته، أو طرفاً من أحداثه أو لحظة من تاريخه.

وكانت تلك الشخصيات تغطي تقريباً كل النماذج البشرية التي تميز بها المجتمع الفرنسي في النصف الأول من القرن الماضي، والواقع أن بلزاك كان من خلال عمله الروائي الضخم، مؤرخاً للمجتمع الذي عاش فيه كأدق ما يكون المؤرخ، وقد أحصى بعض النقاد عدد الشخصيات المذكورة في رواياته فوجدوها تضم ٢٤٧٢ شخصية خيالية محددة بالاسم والمعالم، و٥٦٦ شخصية مذكورة بالوظيفة فقط، فضلاً عن شخصيات تاريخية حقيقية عديدة.

خالد عوض

الملاك الضال

في أواخر شهر أكتوبر سنة ١٨٢٩ دخل شاب قصر الميسر المسمى باليه رويال، في لحظة الافتتاح المحددة بنص القانون من كل يوم. وصعد السلم في غير تردد، فناداه الحاجب العجوز بصوت جاف لا يخلو من ملامة:

– قبعتك يا سيدي من فضلك!

وظهرت الدهشة على الشاب حين سلمه الحاجب رقما منقوشا على النحاس، فدلت تلك الدهشة على أنه لم يألف ارتياد تلك الأماكن.ولعله جاء إلى هنا مدفوعا بما عبر عنه جان جاك روسو بكلمة" من أحكم ما خطه قلمه.

لا يذهب المرء إلى موائد الميسر إلا حينما تتأزم حياته ويدركه اليأس".

ولئن كان إسبانيا تزهو بمصارعة الثيران، وروما القديمة بمصارعة السباع، فباريس كانت تتباهى بالباليه روايال، حيث تتيح حركات الروليت لذة مشاهدة الدماء وهي تسيل أنهارا من غير أن تتعرض الأقدام للانزلاق بسببها على أرض الحجرات، فتعال معي نلقي نظرة خاطفة على تلك المائدة الدامية!

إن الجدران عارية من التصاوير، ولا نحسبهم تحاشوا أن يوجد فيها مسمار واحد، إلا خشية أن يغري ذلك المسمار ضحايا الميسر بالانتحار!

أما الأرض فقد بلي خشبها وفارقه رونقه، وها هي المائدة البيضاوية الشكل تتوسط القاعة ومن حولها الكراسي القش تتزاحم حول ذلك المفرش الأخضر الذي بلي من رنين الذهب ولمس الأيدي.

فكل شيء هنا يدل على عدم الاكتراث بالترف والرفاهية لدى قوم لا يأتون إلا ليفنوا في سبيل تحقيق الثراء والترف.

وفي اللحظة التي دخل فيها الشاب القاعة، كان هناك بضعة من اللاعبين قد بكروا قبل موعد الافتتاح بدقائق، فها هم ثلاثة شيوخ قد تحلقوا برؤوسهم الصلعاء حول البساط الأخضر، وكأنما قدت وجوههم من الجص، وهي وجوه جامدة لا تنم عن شيء كوجوه الدبلوماسيين، من ورائها قلوب علمتها الأيام ألا تخفق بالفرح أو بالحزن أو بالقلق، حتى حينما يجازفون بآخر ما ائتمنتهم عليه زوجاتهم من ثروتهن الموروثة.

وكان هناك كذلك شاب إيطالي أسود اللمحة، زيتوني البشرة، اعتمد بمرفقه على طرف المائدة في هدوء وكأنما قد استسلم للوحي الذي يؤمن المقامرون أنه يتنزل عليهم بصادق الإلهام فيسدد خطاهم إلى الكسب أن أحسنوا تلقيه والفهم عنه ... ومن حول هؤلاء الأربعة وقف سبعة أو ثمانية من المشاهدين ينتظرون ارتفاع الستار عن المشهد الذي أعده لهم هؤلاء اللاعبون الذين تتعلق مصائرهم بحركة كرة الروليت وسكونها، فما أشبه هؤلاء في صمتهم وتطامن رؤوسهم بزحام الجماهير في ساحة الاعتصام ليروا فأس الجلاد وهي ترمي من تحت أقدامهم أعناق المذنبين.

وأقبل سدنه القصر في وجوه معروفة وظهور مقوسة، عندما أشار إليهم

المدير أن الساعة أزفت لنشاط آلهة الحظ، وفي هذه اللحظة دخل صاحبنا الشاب فتحولت إليه الوجوه بدافع التطلع.

وشعر الجميع بشيء من الدهشة والإشفاق. فلابد أن منظره كان يدل على الشقاء الشديد حتى استطاع أن ينتزع من تلك القلوب التي جف ماؤها نظرة عطف.

والواقع أن وجه هذا الفتى كان مليحا، وفي نظراته أثر ناطق من مئات الآمال التي خابت، وفي ابتسامته الصفراء استسلام موجع للقلوب، وذلك الذكاء الخارق الذي يشع من جبينه العريض قد ثقلت عليه ظلال من الهموم والانهماك لابد أن لها سرا عميقا من مرض أو تهتك في الملذات أو عاطفة محرقة كما تحرق النار اليابس الحطب.

وقد حرص الفتى عند ارتداء صداره وربطة عنقه ألا يترك شيئا من قيصة يبدو للعيان، فلعل هذا القميص لم يكن نظيفا، أو لعله لم يكن موجودا على الإطلاق وأما يداه الجميلتان كأيدي النساء فلم تكونا غاية في النظافة، فهو لم يلبس منذ يومين قفازا، إلا أن ذلك كان شيئا لا تقف عنده العين، إذ هي لا شك ستشغل بالوقوف طويلا عند تلك الخصلات الذهبية الغنية في نعومتها وتوهجها وتموجها الساحر، أنه وجه رائع لملاك لبس صورة إنسان في الخامسة والعشرين. ولا يمكن أن يكون ضلال الرذيلة عند هذا الفتى غير عارض ليس مكتوبا له أن يدوم، فأنت تكاد ترى رونق الشباب الغض يكافح رعونة النزق، هنا تشهد الظلمة تصطرع مع النور، فالعدم يتحدى نعمة البقاء، فتشعر أمام تلك المعركة بالروعة والارتياع في آن.

فلم يشك أحد من هؤلاء الساقطين المسحوقين حين رأى ذلك الفتى مقبلا ببراءته واندفاعه، أنه أمام ملاك تخلت عنه أجنحته وضل طريقه، فشعروا على تمرسهم بالرذيلة والفساد، كشعور المرأة العجوز التي سقطت أسنانها في الخنا والفجور، حين ترى أمامها فتاة مليحة في بكرة العمر تخطو مغمضة العينين نحو هاوية البغاء ... حتى لقد أوشك كل منهم أن يصرخ في وجهه:

– عد من حيث أتيت!

وخطا الفتى نحو المائدة رأسا، ووقف غير مكترث بالجلوس، ولم يتمهل لينظر لنفسه أين يضع رهانه، شأن من يتوقعون الإلهام، أو يدعون حذق الحساب في فنون القمار بعد تجربة السنين، ليبرروا أمام أنفسهم الاستمرار في ممارسة ذلك الإثم، بل ألقى قطعة من الذهب كانت في يده فوق البساط الأخضر حيثما اتفق، فتدحرجت ثم استقرت فوق اللون الأسود، ورمق المشرف على الآلة بنظرة ثاقبة يمتزج فيها التحدي بالهدوء والثبات.

وكان الرقم الذي يدل على مدى الكسب في حالة حدوثه، رقما ضخما فتقاعس الشيوخ الثلاثة ولم يخاطروا أمامه بالمبلغ المطلوب، أما الشاب الإيطالي فابتسم كأنما تلقى من موضع الهامة بشرى، ووضع مجموعة ماله كلها مقابل قطعة الشاب الغريب الواحدة، واشرأبت الأعناق لدوران الآلة الجهنمية، فكل واحد من الحاضرين كان يريد أن يرى المأساة التي تمثل الفصل الأخير من حياة كريمة وقد انجاب عنها مصيره هذه القطعة من الذهب ...

وتعلقت أبصارهم المتوهجة بذلك البساط البالي، ثم راحوا ينقلونها بين

الأرقام ووجه الفتى المجهول، إلا أنهم لم يستطيعوا أن يتبينوا في ذلك الوجه الأملس الناضر شيئا من علائم الانفعال، لأن عزيمته لم تدع مجالا في محياه الجامد الهادئ لشيء من الضعف المعهود وصاح الموكل بالآلة في صوته التقريري:

الأحمر يربح ....! ربحا مزدوجا ...!

فخرجت من صدر الشاب الإيطالي شهقة مكتومة وهو يرى عشرات أوراق النقد التي يلقيها إليه ذلك العامل الهضيم الوجه ..

أما الشاب الغريب فلم يدرك خسارته إلا بعد أن امتدت يد العامل بمسبحاته فجرفت آخر جنيهاته ، حيث تدحرج في صوت أجش مكتوم وانضم إلى كومة الذهب المكدسة في درج المائدة لحساب "البنك"

وأغمض الشاب عينيه في رقة ببطء، وابيضت شفتاه، بيد أنه لم يلبث أن فتح عينيه، واستردت شفتاه حمرة العميق، واصطنع سحنة الإنجليز حينما يتجلدون في غير اضطراب للنوازل الجسام .. ثم اختفى من القاعة من غير أن يتسول من الحاضرين نظرة أسى، أو عطف أو رثاء أو عزاء ...

حقا! ما أكثر ما تغير أحوال الدنيا في لمح البصر، وما أكثر ما تتعلق المصائر فيها بضربة من ضربات النرد حيثما اتفق!

وعلق المشرف على المائدة، ربما يتفق وخبرته في اللعب واللاعبين قائلا:

- إنه ليس من أهل اللعبة ... وإلا لقسم مبلغ رهانه هذا ثلاثة أقسام،

ليضاعف من فرحه في الربح ... كلا، أنه ليس من أهل اللعبة ولا مراء.

ومر الشاب من غير أن يطالب بقبعته، بيد أن الحاجب المسن وقد رأى ما ارتسم على وجهه من القنوط، قدمها إليه من غير أن ينبس بكلمة، فرد إليه اللاعب الرقم النحاسي بحركة آلية، ثم أخذ يهبط درجات السلم وهو يصفر أغنية شائعة بنغم خافت عذب، لم يكن يصل إلى أذنيه في معظم الوقت لشدة خفوته.

وتوجه الشاب بعد ذلك إلى شارع سان وأنوريه، واخترق حدائق التويلري بخطوات ثابتة .. كان يمشي كأنه يجتاز صحراء، لا يصغي من آلاف الأصوات التي حوله إلا لنداء واحد هو نداء الموت ... وقد استغرق في خواطر لعلها من قبيل ما كان يزدحم في رؤوس من كانت عربة الإرهاب تحملهم من البالية رويال إلى الاعتصاب حيث المنصة الحمراء من كثرة ما نزف عليها من الدماء بحد المقصلة التي كانت تعلوها منذ سنة ١٧٩٣ ...

خواطر وأشجان

في الانتحار شيء لا أدري كنهه يروع ويهول، أعني بذلك انتحار الأفراد، فالجماهير حين تتعرض للسقوط لا يخشى عليها منه، ذلك أن الجموع أشبه بالأطفال، تسقط من ارتفاع قريب فلا يصيبها مكروه، أما الرجل العظيم والفرد النامي فلابد كي تحطمه الأيام أن يكون سقوطه من ارتفاع شاهق، من سماء عالية حاول أن ينفذ فيها إلى فردوس لا ينال، ولابد أن تكون عاتية تلك الأعاصير التي تكره إنسانا كبيرا أن يطلب الأمن والنجاة لنفسه من فوهة مسدس. وأنه لمن شقاء هذه البشرية أن ترى شبانا موهوبين يقضون حياتهم في حجرات السطوح لا يؤنسهم صديق ولا تسري عنهم امرأة، وسط خضم من ملايين المخلوقات التافهة التي أتخمتها ملالة الترف!

إن انتحار كل شاب من هذا القبيل إنما هو قصيدة رائعة من قصائد الأسى وملاحم الأحزان. وأين عساك أن تجد في بحر الأدب كتابا طافيا على سطحه يمكن أن يعادل ذلك السطر الواحد؟

أمس في الساعة الرابعة التي ألقت أمراه في ريعان الشباب بنفسها إلى السين من فوق قنطرة الفنون.

وهذا صاحبنا الشاب كانت تجول في رأسه أشباه لتلك الخواطر، وقد ضاق بالحياة واتجه بمجموع رغبته نحو الانتحار، ولما رفع عينيه إلى السماء

رأى سحبا رمادية داكنة تدفعها رياح محملة بالوجوم، في جو ثقيل الأنفاس، يغريه بالموت فوق الذي يجده في أعماق سريرته من إغراء، فأخذ الفتى سمته نحو القنطرة الملكية، وقد جالت بذهنه النزوات الأخيرة للمشاهير ممن سبقوه في ذلك المجال، وابتسم حين تذكر أن اللورد كاستيلري حرص أن يلم بدورة المياه ليقضي حاجته العضوية قبل أن يذبح نفسه، ولم يهتم في لحظاته الأخيرة بغير ذلك الفعل الذي رد به إلى آخر الدنيا ما أخذه منها من الزاد، وتذكر أيضا أن الأكاديمي الشهير أوجيه حرص أن يبعث في طلب علبة نشوقه كي ينشق منها وهو يسير نحو منيته، ثم سأل نفسه وهو يعتمد بصدره على حاجز القنطرة ليترك متسعا لمرور عربة محملة بالبضاعة متجهة إلى السوق، لماذا اهتم أن ينفض عن كم سترته آثار التراب الذي رآه يعلق به عن الاحتكاك؟ وبعد ذلك ألقى على الماء نظرة فياضة بالاكتئاب. ثم ارتعدت فرائصه حين حول عينيه فرأى سفينة راسية على الشاطئ من جهة التويليري تحمل لافتة ضخمة عليها كتابة كبيرة تنبئ أنها مخصصة لإسعاف الغرقى.

وبشيء من التفكير بدا له الانتحار غرقا في وضح النهار عملا يدل عن الذوق السليم وينفر منه حسه الجمالي، فعول على تأجيل انتحاره إلى ما بعد مغيب الشمس كي يأتمن أستار الليل على جثة ينجو بها تيار النهر إلى المحيط من غير ضجة سوقية يقيمها هذا المجتمع المنحط الذي تنكر لعظمة حياته وأبى أن يعرف له قدره وهو حي.

ولما هبط الدرجات المفضية إلى الشارع من إفريز القنطرة عند زاوية الرصيف، لفت نظره ما انتشر هنا وهناك من الكتب القديمة فمالت به

نفسه من غير تفكير إلى النظر فيها عسى أن يجد بينها ما يروق له. ثم تذكر ما عقد عليه العزم فابتسم ودس يده في جيبه واستأنف سيره في عدم مبالاة وقد أطلت من عينيه نظرة ازدراء فاتر.

وإذا به يدهش لسماع صليل بضع قطع من النقود كانت متوارية في زوايا جيبه وهو لا يدري، وأشرق وجهه بابتسامة رجاء انتقلت من شفتيه إلى معارف وجهه وجبينه، فتألقت بالسرور عيناه ووجنتاه، فما أشبه تألق البشر في محياه ساعتئذ بتوهج النار في بقايا ورقة أوشكت النار من قبل أن تأتي عليها، فسرعان ما يخبو ذلك الضياء لتتكشف للعيان كومة من رماد أسود ... كذلك صاحبنا سرعان ما غاض البشر الطارئ من وجهه ليرتد أشد كآبة حينما أخرج يده من جيبه ليرى في بطن راحته ثلاثة سنتيمات.

وفي هذه اللحظة سمع غلاما إيطالي اللهجة من منظفي المداخن، ترك دخانها الأسود طبقة معجونة بالعرق على وجهه وثيابه وجسده ويديه الممدودة:

- تصدق يا سيدي على المسكين بسنتيم يشتري به رغيفا!

وعلى قيد خطوتين من ذلك الفتى وقف عجوز يتقاسمه المرض والخجل، ويقول له بصوت غليظ أجش:

- أعطني يا سيدي ما تجود به، سأدعو لك الله.

فلما نظر صاحبنا إلى الشيخ كف هذا عن السؤال. ولعله قرأ على وجهه المحزون سيماء شقاء أعنف وأنكى من شقائه. فألقى الشاب بما في يده إلى السائلين، وهو يغادر ذلك الطور متجها نحو الجانب المأهول، بعد

أن ضاقت نفسه بما يحركه مرأى السين فيه من انقباض عنيف، ورنت في أذنيه كلماتها:

- سندعو الله يا سيدي أن يمد في عمرك!

وعندما بلغ الفتى في مسيره واجهة حانوت للتصاوير، التقى هذا الذي يوشك أن يموت بشابه تهبط من عربة فارهة، في أتم زينة وأبهى حلية، فوقف يتأمل حسن تلك المرأة الفاتنة التي أبرز بياض وجهها سواد تلك الرفارف الحريرية المدلاة من قبعتها الجميلة.

وسبي قلبه منها عود أملد، حلو التثني، وخفق فؤاده لمنظر قدميها الساحرتين حين كشفت عنهما أذيال ثوبها الفاخر وهي تهبط من مركبتها، ومن فوقهما ساق بديعة التكوين.

ودخلت الحسناء الحانوت فاشترت عددا من المجموعات المصورة بحفنة من الذهب جعلت ترنها واحدة واحدة وهي تدفع بها إلى التاجر.

وكان الفتى واقفا يتشاغل عند عتبة الباب بمشاهدة المعروضات في الواجهة، فتبادل مع الحسناء المجهولة نظرة عارمة حملها أقوى دفعات الحياة عند شاب، وحملت هي نظرتها تلك أهون ما تلقي به الفتاة المدلة بجمالها ومالها العابرين في سبيلها.

كانت نظرته أحر وداع للحب وللنساء! ولكنها لم تفقه من نظرة هذا المجهول تلك الصرخة التي اهتزت بها أعماقه، فلم يحمر وجهها ولم تغض لحرارتها من عينيها، فمن عساه يكون بالنسبة لها؟ معجب آخر، لا قيمة له إلا أن يعين على الإيحاء إليها عند حلول المساء بذلك الخاطر الذي يلذ

للفتيات: "كنت اليوم كما ينبغي، فتنة للناظرين!"

وانتقل الشاب إلى إطار آخر، وولى ظهره للفتاة وهي تركب عربتها، وقاوم بإصرار رغبته في الالتفات إليها وقد همت جيادها بالانطلاق.

فلم يشأ أن يتمادى في التعلق بآخر رموز الترف والأناقة اللذين اشتهاهما في دنياه.

وجعل يتمشى في خطوة وئيدة أمام الحوانيت، يرمق في غير مبالاة ما كان معروضا منها في الواجهات. وحينما انتهى من الحوانيت جعل يرمق في واجهة اللوفر، والمجمع العلمي، وأبراج نوتردام، والبالية، وقنطرة الفنون، لأنه كان يريد الهرب من اغراء الحياة الذي يستولي عليه إذا نظر إلى الموجودات الطبيعية، التي أودعها الله نعمة الحياة، فلم يجد ذلك المهرب، إلا في النظر إلى ما صنعته يد الإنسان، فجاء ميتا لا حياة فيه.

وعلى هذا الأساس اتجه إلى محل كبير للعاديات والتحف القديمة، ليمتع حواسه بجمال الصناعة، وليجعل ساعاته الأخيرة في جو من غبار الزمن يمهد لأقدامه على الفناء تمهيدا طبيعيا، ولهذا دخل عند تاجر التحف والطرائف وقد استجمع قلة المبالاة التي يصطنعها المحكوم عليهم بالإعدام حين يساقون إلى المقصلة، فرسم على شفتيه ابتسامة ثابتة كابتسامة المعربدين، ألم يسكر من الحياة؟ وإن لم يكن سكره من الحياة، فسكره من الموت لا شك فيه!

وشرع ينظر إلى الأشياء المعروضة بهذه النظرة فبدت له في ألوان غريبة، وخيل إليه أن بعضها يهتز ويتحرك ويومئ إليه، فأدرك أن ذلك

ناشئ من اضطراب أعصابه ودورته الدموية، فلا شك أن دماءه كانت تغلي في أعماقه كالقدر، وإن كان سطحها هادئا كالماء الفاتر.

ولمح فتى غض الإهاب محمر الشعر، يقف بالباب في كسوة المستقبلين، فأبدى له رغبته في مشاهدة ما عندهم من أنواع الغرائب.

عسى أن يجد من بينها ما يميل إلى اقتنائه، فقال العامل وهو ينتهي من تنظيف تحفة من الخزف.

إن التحف التي في الطابق الأرضي من النوع العادي، فإن أحببت أن تصعد إلى الطابق الأول فستجد هناك أجمل مومياء الفراعنة وتحف الأبنوس المنقوش بأيدي هؤلاء المردة أساتذة الفنون الأقدمين على ضفاف النيل، وبعد هذا تترقى في نفائس التحف حتى ترى ما لم يحشد من قبل لعين البشر من الأعاجيب.

في المتحف

بدت مخازن ذلك الحانوت الضخم لعيني صديقنا الشاب كلوحة مختلطة الأشكال، لما تجمع فيها من صنوف المصنوعات البشرية والإلهية. فهناك تماسيح محنطة، وقرود، وأفاعي البوا كاشفة عن أنيابها للوحة زجاج ملون منزوعة من كنيسة قديمة، فكأنها تهم أن تلدغ صدور القديسين المرسومين على ذلك الزجاج، وتتسلق تلك الثريات الضخمة العجيبة النقوش، وعن كثب من ذلك أنواع شتى من أدوات الموت ما بين سيوف رومانية ورماح عربية ودرقات سودانية، وخناجر من صنع العجم، ومسدسات مزخرفة، وأسلحة قديمها بحديثها في غير نمط أو نظام، مع آنية ثمينة من خزف سيفر كالزهريات المنقوشة وقصاع الحساء، وأباريق الشاي التي افتن في صنعها وزخرفتها أهل الصين، وملاحات من أيام القرون الوسطى.

فكأنما كل بقعة من بقاع الأرض جاءت إلى ذلك المتحف بشيء من بقاياها ينم على شخصيتها وأسلوبها في الحياة، فألقى ذلك كله في غير عناية، شأن القدر حين يستهين بكل عزيز ويبتذل كل مصون.

وكانت طبقة من الغبار الكثيف تغطي ذلك كله، كي يتم التعبير الرمزي عن فعل القدر حين يكفن كل آثار الماضي بسحائب من التراب الذي منه بدا الإنسان وإليه المآب.

وهم صاحبنا الشاب أن يتخلص من ذلك الإحساس بسلطان الفناء الذي يستخدمه الزمن ليعدو على كل شيء، وفكر أن يمد يده لقلب بعضا من هذه الأشياء بأنامله عسى أن يجد في ذلك ما يسليه، لولا أن شيئا من الحمى سرى في جسده، ولعلها من آثار ذلك الجوع الذي كان يزار داخل أمعائه، فساعد ذلك على تخلصه من عالم الواقع بأسره والدخول في عالم الأحلام والمعاني.

وبعد سبحة طويلة في نيران التصوف التي أججها الجوع وشعوره الخاص بالإقبال على الموت، تنبه لوجود عامل المتحف فقال له وهو يخطو نحو الطابق الآخر:

- إن لديكم هنا أشياء تقدر بالملايين!
- بل قل يا سيدي بآلاف الملايين. ولكن هذا كله ليس شيئا مذكورا بالقياس إلى ما لدينا في الطابق الثالث. وسترى!

فتبع صاحبنا دليله إلى ذلك الطابق، حيث تتابعت أمام عينيه الكليلتين لوحات للرسام العظيم فوسان، وتمثال رائع لميكيل أنجلو، ثم رسوم عجيبة لمناظر طبيعية بريشة كلودلوران وجيرار داو ورامبراند وموريللو وفيلاسكير .. ذكرته لفخامتها قصائد لورد بيرون في الشعر الإنجليزي.

وجعل الغريب يتدرج من قاعة إلى قاعة حتى وقف أمام صندوق مقفل من خشب الأكاجو معلق في سلسلة من الفضة إلى مسمار، فسأل:

- ماذا في هذا الصندوق؟

- سيدي يحتفظ بالمفتاح. فإن أحببت أن ترى ما بداخل الصندوق دعوت سيدي. أو حاولت ذلك على الأقل.
- وهل سيدك هذا أمير يصعب عليك الاتصال به؟
- لا أدري عن حقيقة سيدي شيئا ...

وتبادلا النظرات. وكل منهما أشد دهشة من صاحبه. ثم فسر العامل صمت الشاب الغريب على أنه إصرار فتركه وحده في تلك الحجرة الصغيرة، فإذا الوحدة بين تلك البقايا الغريبة لأناس غبروا وبادوا تزيد من وحشته وزهده في الحياة الفانية التي يبقى فيها أتفه الأشياء ولا تدوم لحي من الأحياء ... فتهالك فوق مقعد وجده هناك، وترك نظراته تتجول بين صور ذلك الماضي، وإذا اللوحات تشرق وتتلألأ. وإذا الوجوه تبتسم له، والتماثيل تتلون، وساعدت على تجسيم أوهامه الظلال المنتشرة فانطلق العنان لخياله المحموم يشكل من تلك الأشياء تكوينات جديدة حية، وتحركت تلك الأشياء الجامدة من قواعدها وجعلت تومئ إليه في خشونة حينا وفي رقة حينا آخر وسط السكون المطبق حوله، فراح في شبه غيبوبة...

وانقضت فترة من الوقت لم يشعر فيها بأي معنى واضح للأشياء الأرضية وخيل إليه أنه سمع صوتا هائلا، فارتعد كما لو كان رازحا تحت كابوس يزج به إلى هاوية ليس لها من قرار وكان الصوت صادرا عن شيخ ضئيل الحجم يتجه نحوه وقد رفع في يده فانوسا فالتبس في ذهنه هذا الشخص بالشخوص السحرية، وارتعد خوفا. ولا سيما أمام تلك النظرات

الشابة على الرغم من شيخوخة صاحبها الواضحة، وبقي في شك من أمر هذا الشيخ بعض الوقت.

وعلى الأخص حينما رأى جسمه ملفوفا في عباءة فضفاضة سوداء لا يتبين منها الناظر إلا وجها نحيلا شاحبا، وذراعا كالعصا يرفع بها المصباح فوق وجه الشاب، وكانت له لحية بيضاء مدببة تجعله شبيها بأوجه أحبار العبرانيين، أو بتلك الشخوص التي يمثل بها الرسامون سلالة موسى الأقدمين. أما التجاعيد التي تملأ خديه وجبينه فتنم عن شخص عرك الدهر وجرب حلو الحياة ومرها، وأما نظراته النفاذة فتوحي بأنه شخص لا يمكن أن تجوز عليه الخدع والحيل، فكأنه يقرأ المستور في حنايا الصدور ...

وكان هذا الشيخ واقفا منتصب القامة ساكن الأسارير، كأنه النجم الثاقب في سماء حالكة الظلمة، كان صوت هذا الشيخ هو الذي أشاع الاضطراب في نفس صاحبنا، فلما رأى سكوته أعاد عليه الكلام بعد حين:

- هل طلب السيد أن يشاهد صورة السيد المسيح بريشة رفاييل؟

وكان صوت ذلك الشيخ صافيا رنانا لا يخلو من شبه بصليل المعادن. ووضع المصباح فوق عامود مكسور، بحيث سقط نوره كله على الصندوق البني ...

وأمام قدسية اسمي المسيح ورفاييل صدرت عن الشاب إشارة تطلع لا شك أن التاجر كان ينتظرها فضغط على زر، فإذا وجه الصندوق ينزلق من غير صوت مسفرا عن اللوحة كي تنهل منها نظرات الغريب ...

وأمام ذلك الإبداع المعجز الخالد نسي الشاب كل غرائب ذلك المتحف وارتد عن عالم الوهم والحلم إلى عالم الواقع، فتبين في ذلك الشيخ مخلوقا من اللحم والدم لا شخصا من شخوص السحر.

وانعكست عليه إشعاعه من رقة ذلك الوجه المقدس وطمأنينته، فكأنما سرى بلسم سماوي في عظامه التي أحرق نخاعها عذاب نفسه الجهنمي، وخيل إليه أن فيضا من البلاغة العلوية يغمر وجدانه من كل لمحة من لمحات ذلك المحيا النوراني، وإن شفتيه القرمزيتين ما زالتا تنثال منهما آيات موعظة الجبل التي بشر فيها المحزونين والمسحوقين بميراث الملكوت في عليين، ووجد نفسه يفهم عبارات تلك البشارة بغير حاجة إلى ترجمان، فأي ترجمة تحتاج إليها هاتان العينان في صفائهما الذي تلوذ به جميع النفوس المضطربة؟ وقرأ في تلك الابتسامة العذبة جماع ذلك الدين كاملا كما لخصه الحواري العظيم في ثلاث كلمات: أحبوا بعضكما بعضا!

فتلك الصورة تلهم الصلاة وتحض على المغفرة والصفح وتقتل الأنانية وتوقظ جميع الفصائل الخامدة، بل إن هذا العمل المعجز من أعمال رفاييل يشارك في مزايا التصوير ومزايا الموسيقى السامية، حتى أنه يستولي عليك استيلاء كليا تنسى معه أنك أمام صنعة من ريشة الرسام ...

وتنهد الشاب عندما أفاق من هذه النشوة الفنية وقال:

- آه! لا بد من الموت!

فقبض الشيخ على معصمي الشاب بيد كأنها طوق من الحديد وقال:

- كنت محقا في الاسترابة بك!

فابتسم الغريب في أسى وقال بصوت رقيق:

- لا تخف يا سيدي، إنما عنيت موتي لا موتك ... ولا بأس أن أصرح لك بحقيقة الموقف، وأني كنت أنتظر حلول الليل لأضمن غرقي من غير تدخل من الناس. وخطر لي أن أقطع وقت الانتظار بمشاهدة نفائسك. ومن ذا الذي لا يغفر تلك اللذة الأخيرة لرجل من أهل العلم والفن؟

فحدج التاجر المستريب وجه الغريب بنظرة فاحصة وهو يصغي لكلماته. فلما اطمأن إلى صدقه أطلق يديه. بيد أنه بسط ذراعه إلى مائدة قريبة كأنه يتكئ فوقها، وهو في الواقع يتناول خلسة خنجرا حادا، ثم قال:

- هل تبرأ أبوك؟ أو لوثت شرفك؟

- لو رضيت أن ألوث شرفي لتمكنت أن أعيش.

- أهو الملل من الحياة إذن؟ ما الذي يدفعك إلى الموت؟

- لا تنشد يا سيدي علة موتي في تلك الأسباب السوقية التي تكمن وراء معظم حالات الانتحار. وكي أعفي نفسي من مكاشفتك بأنواع العذاب لم يسمع بها من قبل ويصعب كثيرا التعبير عنها بلغة البشر، يكفي أن أقول لك أني أرزح تحت أعنف وأوخم أنواع الشقاء والفاقة، ولست راغبا في التسول أو استجداء المعونة والعزاء

- مه! تلك سورة من سورات الشباب!

وكانت لهجته وهو يقول تلك الجملة أشبه بصرير الحداة .. ثم استطرد:

- ليس في نيتي أن أدفعك إلى التوسل أو التسول. ولا في نيتي أن أخجلك بإعطائك سنتيما من عملة فرنسا، أو بارة من عملة الشرق، أو كوبكا من عملة الروسيا، أو دانقا من عملة ايقوسيا، أو قرشا من عملة تركيا، أو كسروتيزر من عملة ألمانيا، ولا أي درهم من دراهم العالم القديم أو العالم الحديث، أو ما يساوي من ذلك من معدن الذهب أو الفضة أو النحاس أو ما يقوم مقام ذلك في أيامنا من صكوك المصارف وأذوق الورق، ومع هذا فسوف أجعلك أغنى وأقوى وأعز جانبا من أي ملك دستوري!

فظن الشاب أن الشيخ يهرف، وقد أدركه داء السين، فارتد إلى عبث الطفولة، فوقف ساكتا لا يجسر على الجواب، واستطرد التاجر، وقد رفع في يده على حين غرة مصباحه الكشاف وسلطه على الجدار لصورة المسيح التي رسمها رفاييل، ثم قال له بصوت هادئ واثق ينبض بالسلطان:

- در على عقبيك أيها الشاب وانظر! انظر إلى جلد "الفرا"، فهذا هو الدواء الذي يقضي على جميع أدوائك!

الطلسم

وقف الشاب مأخوذا، وجعل يحملق أمامه في قطعة من الجلد مثبتة على الحائط، لا يتجاوز حجمهما حجم جلد الثعلب، إلا أن خاصة سحرية فيها جعلتها ترسل في الظلام المحيط بها ضوء مجهول الكنة، حتى خيل إليه أنه أمام مذنب من المذنبات الفلكية، فتقدم غير مصدق نحو ذلك الطلسم المزعوم وهو يسخر في أعماق نفسه من مفعوله السحري، واقترب بعينيه جدا ليختبره جيدا. وعندئذ اتضح له سبب ذلك الضوء. فالفراء لنوع من حمار الوحش لا تعرفه إلا صحاري الشرق. وكانت الحبوب السوداء في ذلك الجلد شديدة اللمعان. وهذا اللمعان هو الذي اشتبه في نظره بالضوء. وبعد ذلك تبين نقشا في الجلد على شكل النجم السداسي الذي يسمى نجمة إسرائيل، فهتف بالشيخ الذي كان يبتسم ابتسامة غامضة:

– وهذا طابع الخاتم الذي يسميه أهل الشرق خاتم سليمان!

فاختلج منخرا التاجر بزفير قوي دل على جيشان نفسه دلالة أوضح من كل كلام وقال بدهشة:

– أتعرف خاتم سليمان أيها الشاب؟

– ومع هذا فهل في عصرنا الحاضر إنسان واحد تبلغ به السذاجة أن يصدق تلك الخرافة؟

– ما دمت أيها الشاب ملما بمعارف الشرق، وواحدا ممن نسميهم مستشرقين، فهل في استطاعتك أن تقرأ هذه العبارة ؟

ثم قرب المصباح من الجلد، وجعل الفتى يقلبه في يده، ونبهه إلى حروف مطبوعة في نسيج الخلايا، حتى كأن هذه الكلمات كانت جزءا أصليا من الحيوان قبل سلخه، وأخذ العجب من الشاب مأخذه لطريقة طبع تلك الألفاظ على هذا النحو، فصاح:

– إني أعترف بالعجز عن فهم سر طريقة هذا النقش ...

وتلفت الشاب حوله كأنه يبحث عن شيء:

– ماذا تريد؟

– أي آلة أستطيع بها أن أقشط هذا الجلد كي أعرف هل هذه الكلمات مطبوعة فوقه أو أنها أصلية فيه.

فمد الشيخ يده بالخنجر الذي كان محتفظا به إلى الشاب. فجعل يحاول خدش الجلد من عند موضع تلك الكلمات. حتى إذا أفلح بعد تعب شديد في رفع طبقة من طبقات الجلد وجد الكتابة تحتها على حالها من الوضوح كأنه لم ينزع من الجلد شيئا.

– حقا إن صناعة أهل الشرق فيها من الأسرار الخافية شيء كثير!

وحدد النظر في الكتابة نفسها. فوجدها بحروف عربية على النحو التالي:

"لو ملكتني ملكت الكل

ولكن عمرك ملكي

وأراد الله هكذا

"أطلب وستنال مطالبك

ولكن قس مطالبك على عمرك

وهي ها هنا

"فبكل مرامك استنزل أيامك

أتريدني

الله مجيبك ... آمين ...

وأخذت الشيخ العجب من طلاقة الشاب في قراءة ذلك النص العربي فقال له:

– لقد درست يا سيدي علوم الأقدمين والمحدثين وتعلمت العربية والعبرية والفارسية والهندية كي أضع نظرية في الإدارة.

وأعاد الشيخ المصباح إلى موضعه وهو ينتظر أن يرى تأثير جلد الفرا وما قرأه فوقه، وقال الفتى:

– ما هذا؟ أهي مزحة أم سحر؟

وقف الشاب مأخوذا يحملق أمامه في قطعة من الجلد مثبتة على الحائط.

– ليس عندي جواب على ذلك. فقد عرضت السلطان الخارق الذي

تمثله هذه القطعة من الجلد، على أشخاص من ذوي الهمة، فلم يقبل أحد منهم أن يرتبط بهذا العقد الخطير، وأنا شخصيا لم أجرب ...

–ولماذا لم تجرب بنفسك؟

– وكيف يمكن أن أجرب أيها الشاب؟ إن معنى ذلك أن ألقى بنفسي من شاهق لأرى هل أظل معلقا في الهواء أم آخر ميتا، إن الحياة شيء ثمين لا يفرط فيه المرء بسهولة ولا يرهنه مهما كان الثمن، اسمع نصيحتي أيها الشاب فقد جربت الدنيا. وعرفت يوما طعم الفاقة حتى استجديت الخبز القفار، ومع ذلك لم أقنط ولم أفكر في الانتحار، وبمرور الزمن حلت مشاكلي وأصبحت مليونيرا وبلغت سني الآن مائة سنة واثنتين. وأستطيع أن ألخص لك تجربة الحياة كلها في عبارة وجيزة، فأعلم، أيها الشاب، أنه لا يستهلك الإنسان إلا فعلان غريزيان، يستنزفان ينابيع وجوده، ويستغرقان جميع أنواع نشاطه الانتحاري، وهذان الفعلان هما الإرادة والسلطان، وإني أدين بطول عمري لتخلصي من هذين، فالإرادة تحرقنا بنار رغباتنا، والسلطان يدمرنا ويقضي علينا. في حين أن المعرفة تجعلنا على الدوام في حالة توازن مستمر وهدوء نفسي لا يعكره اضطراب، والحمد لله أنني أفلحت في وضع حياتي لا في القلب الذي يمكن أن يتحطم، ولا في الحواس التي يمكن أن تكل، بل في العقل الذي لا يمكن أن يبلى. وبهذا أمنت التطرف على روحي وجسمي مع أنني وطئت بقدمي جميع أنحاء الأرض، من جبال آسيا العالية، إلى سهول أمريكا المترامية، وعرفت جميع أنواع الحكم وجميع لهجات القبائل، أقرضت نقودا للصيني مرتهنا رفاة أبيه، ونمت تحت خيمة الأعرابي بضمان من كلمة لسانه.

وكان كل همي أن أعرف ولا أشبع من المعرفة أبدا. أما الشهوات فأي متعة فيها تنقلب إلى مرارة وغم وندم، وإن بقي من الامتلاك المادي شيء، فإنما هو مجرد فكرة أو ذكرى أو معنى، فكم تكون حياة الإنسان جميلة لو أنه قنع بالمعاني عن كل متعة حسية، إذن لسلم قلبه من التعب، وبدنك من الأعياء، ولعاش في الدنيا كما عشت، وكأنه يتنزه في حديقة، يملأ عينيه من رونق زهرها وشجرها، في أمن وسلام.

وتمهل الشيخ قليلا، وقد التقت عيناه الشابتان بعيني الفتي الغريب، وقال:

- هنا في الرأس، يا فتى، الملايين الحقيقية التي لا تضيع ولا تسرق، أما الجلد الذي يدك فهو الإرادة والقدرة مجتمعين أنه القوتان المحرقتان اللتان تدمران حياة الإنسان. ففيه تجد اللذة العاتية، والقيم الاجتماعية الزاهية، والآلام التي تمتزج بالملذات فتأكل القلب والجسد كما تأكل النار كومة من التبن الجاف، والخيار لك فيما تأخذ وما تترك.

فصاح الشاب، وهو يتشبث بجلد الفرا:

-بل أريد أن أعيش بعنف، أريد أن أعب من الحياة عبا

-مرة أخرى أقول لك أحذر أيها الشاب.

- وماذا أحذر؟ لقد أنفقت عمري في الدراسة والتحصيل والفكر، فلم أحصل من ذلك على القوت الكفاف ...

وقبض الشاب على الطلسم بيديه كلتيهما، ثم هتف:

- أريد عشاء فاخرا ملكيا، وحوريات من ابدع ما تصوره الخيال، ورفاق ندامى من أظرف الشباب وأذكاهم يعشقون المرح ويقضون للشباب حقه، وليكن النبيذ فاخرا معتقا يكفي كأس منه أن يسكر الشارب ثلاثة أيام! وأريد أن يكون السرور مطلقا من غير حد، فيه الإباحة من غير حياء ولا احتشام!

ودوت ضحكة مجلجلة من فم الشيخ، كان لها في أذني الشاب مثل وقع سلاسل الجحيم، ثم قال:

- أتظن أيها الشاب أن أرض متحفي يمكن أن تنشق، لترى جنيا من مردة الجن يحمل إليك مائدة الطعام والشراب، وآلات النقر والطرب وأسباب الفجور والخنا

- وما قيمة الطلسم إذن؟

- إن الراهب البرهمي الذي أعطاني إياه أكد لي أنه يفعل فعله بصورة لا تخرق قوانين الطبيعة المألوفة، ثم اعلم أن هذه الرغبة التي أبديتها ليست رغبة تمتحن بها قوى السحر، لأنها من طراز سوقي يمكن لي أنا البشر أن أحققه لك لو أنني أردت، بيد أني أوثر أن أترك ذلك لمقادير حياتك الجديدة التي بدأتها الآن بقبول التعاقد بينك وبين جلد الفرا، وأحب أن تعلم أيضا أنك بهذا التعاقد لم ترجع عن فكرة الانتحار وإنما أنت في الواقع قد أجلتها ...

فتطلع الشاب إلى محدثة الشيخ مستاء وقال بسخرية:

- سأرى يا سيدي هل سيتغير حظي قبل أن أعبر هذا الشارع، فإن لم

يتغير، عرفت أنك سخرت مني، ولن أسأل لك السماء إلا عقوبة واحدة، أن تحب في سنك هذه الراقصة من ذوات الدلال، لا قلب لها ولا شفقة، فتستولي منك على كنوز تحفك، وتخرجك عن وقارك، وتفسد حياتك أيما إفساد!

واستدار الشاب الغريب بسرعة واندفع خارجا وفي يده جلد الفرا، خرج من غير أن يسمع زفرة أطلقها ذلك الشيخ، وراح يجتاز الدهاليز والقاعات، ويهبط سلم ذلك البيت العجيب، ومن ورائه عامل المتجر لا يستطيع أن يلاحقه ليضيء له الطريق. كان يجري كالهارب من الشيطان، أو كالمجرم الذي يريد أن يباعد بينه وبين مسرح جريمته، ولم يفطن وهو في حالة الانفعال، إلى أن جلد الفرا اكتسب نعومة شديدة وهو في قبضة يده، حتى صار كالقفاز، وأمكنه أن يطويه طيات متقاربة، ثم دسه بحركة آلية في جيب ردائه، حينما وصل إلى الباب الخارجي للمتجر.

ووقف على العتبة يتطلع إلى الشارع لحظة قصيرة، كأنما ليتأكد أن ما مر به كان حقا على سطح الأرض، وليس جولة في مملكة مسحورة، من ممالك الأساطير، فلما أيقن من ذلك، تذكر عزمه ألا يترك فسحة أمام الطلسم لإثبات فضيلته وقدرته، إلا ريثما يقطع الشارع إلى الرصيف الآخر حيث النهر، وحيث اعتزم أن يضع حدا لحياته التي ضاق بها.

واندفع ..

أول الغيث

لم يتسع له الوقت كي يعبر الشارع، فإذا هو مندفع على الرصيف اصطدم بثلاثة شبان كانوا سائرين وقد تأبط كل منهم ذراع الآخر، فشتموه لكن لما تبينوا وجهه، صاح أحدهم:

– أنظروا إنه رفاييل كنا نبحث عنك، أين كنت يا رجل؟

– من أنتم؟

– ستأتي معنا حالا!

– ما المسألة إذن؟

– تقدم وأنت ساكت، وسأقص عليك الموضوع ونحن في الطريق.

وطوعا أو كرها أحاط برفاييل أصدقاؤه، وجذبوه معهم إلى جهة قنطرة الفنون:

– إننا نبحث عنك منذ أسبوع، وقيل لنا في فندقك، أنك رحلت إلى الريف.

– لماذا كل هذه اللهفة على لقائي؟

– هناك بالاختصار اتفاقية فيما بيننا بسبب مشروع جديد، واستقر رأينا جميعا على أنك خير من يصلح لتحمل المسؤولية الكبرى في التوجيه والتنفيذ، فهناك ربع مليون فرنك وضعت تحت تصرفنا لتأسيس

جريدة تمثل المعارضة القوية التي يرضى عن قوتها الساخطون على الحكم القائم، ولكن من غير إضرار جدي بحكومة الملك المواطن لوي فيليب، ونحن يا صديقي كما تعلم لا نكترث بالحرية ولا بالاستبداد، ولا يعنينا الدين ولا الإلحاد، فتلك أمور يعني السوقة بها أنفسهم ويفسدون بها حياتهم. فنحن الفاهمون الواعون نعرف الحقيقة الصلدة وراء كل تلك الأباطيل، وهي أن الوطن ليس إلا عاصمة أسمها باريس أشبه بالمصفق تدار فيه صفقات تبادل الأفكار والآراء والمذاهب بسعر معين يوما بيوم للسطر الواحد، بحيث يكون منتهى الأمل لنا نحن حملة الأقلام أن نظفر في كل يوم بغذاء دسم، وفي كل ليلة بمشاهدة رواية في مسرح أو ملهى، أو الالتئام حول موائد ماجنة تنتظم حولها أفضح العاهرات سيرة وخلقا، ولا ينتهي المجون فيها إلا ضحى الغد، فالدنيا كما نفهمها ليست كدنيا الشعراء والحالمين والمخدوعين، فالحب في دنيانا ابن ساعته، يومه كل عمره، ومع الصبح منتهى أجله، أدام الله عز باريس كما نعهدها ونراها ونتمناها! باريس موطن البهجة والحرية والفكر والنساء والجميلات والفجرة الماجنين والخمر الجيد، حيث لا يحس أحد وطأة السلطان أو القانون، لأن التهتك واللذة هما دعائم كل خلق وكل سلطان في هذا المكان! ولم نجد أيها العزيز رفاييل من هو أجدر منك برئاسة تحرير هذه الصحيفة، فخولناك أعنه السياسة والتوجيه، ونحن الآن في طريقنا إلى مأدبة الافتتاح، حيث يتلقاك جميع المتعاونين على هذا العمل بحرارة الصديق، وولاء الملك المتوج على العقول والأقلام، الملك الذي لا

يغيب عن حصافته شيء من غوامض السياسة الدولية في النمسا أو إنجلترا أو الروسيا، والذي لا يفزعه شيء ولا يلين، رغبة أو رهبة. فهذه هي الصورة التي رسمناها لك عند أصحاب الصحيفة، ولن تثبتها لهم بشيء كافتنانك في المجون في ليلتنا هذه الحمراء التي وعدنا "تايغير" أن تكون أشد احمرار من ليالي بورجيا ومن ليالي بغداد التي حفظتها لنا ذاكرة ألف ليلة ... فما قولك في ذلك يا رفاييل؟

– جميل ... جميل ....

وكانت دهشته وهو يلقي بهذا الجواب في شرود ليست ناجمة عن تحقق رغباته بهذه السرعة السحرية، بل للطريقة الطبيعية التي حدث بها ذلك التحقيق.

– ولكنك تقول "جميل" كما لو كنت تعلق على نبأ وفاة جدك الراحل!

الحقيقة أيها الزملاء أنكم زهرة كتاب فرنسا المأمولين. وإن هذا المشروع يوشك أن يحولنا من ماجنين متواضعين في صغائر الأمور بين ليالي الخمر والعبث، إلى فجرة من الطراز الأول، يتجاوز عبثا طور البراءة إلى الجريمة والحاق الضرر بالبلاد والعباد، وتسميم الأفكار وخداع الضمائر، كان عبثنا فيما مضى عبث العذارى يتهتكن بطرف اللسان، أما اليوم فسيكون تهتكنا في ميدان السياسة تهتك فجور ودعارة بالقلب والبدن، وإن كان اللسان لسان عابد متبتل غيور على الفضائل والمبادئ والأوطان.

أي حرمة يجب أن تصان لميدان السياسة البلهاء؟ إن الشعب جاهل أحمق لا يمكن أن يدرك الحقائق أو يفطن إلى كلمة الصواب، فلا مكان

اليوم في هذا الميدان إلا لمراوغ أو مستغل أو مجرم، إن قلوبنا قد امتلأت نفورا وتقززا. فأعلم أيها الصديق أن الصحافة هي الدين الجديد للمجتمعات الحديثة، مع تعديل جديد في مفهوم الدين والتدين.

- وما هو؟

- إن السوقة والكهان في هذا الدين غير ملزمين بالاعتقاد والإيمان، فكل ما يطلب منهم هو التبشير والكلام، وكذلك الشعب غير ملزم بالتصديق، ويكتفي منه بالانقياد والإذعان!

وعندئذ كان الفرسان الأربعة قد وصلوا إلى بيت فخم في شارع جوبير حيث يسكن أميل تايغير، وحيث أقيمت المأدبة الحمراء الجديرة في حقيقتها ومظهرها بروح تلك الصحيفة التي أقيمت المأدبة تحية لها ...

وكان أميل هذا صحفيا من النوع العصري، اكتسب من المجد عن طريق عدم الإنتاج أكثر مما اكتسبه جميع المنتجين من حملة الأقلام، اشتهر ببراعة النقد اللاذع، ولكن في شهامة الفارس القديم الذي يواجه الصديق بأقصى ألوان التهكم الموجع، حتى إذا غاب ذلك الصديق دافع عنه بكل شجاعة وإخلاص، كان يتهكم من كل شيء حتى من نفسه ومستقبله، ويسخر من جميع القيم حتى قيمة المال، فلا يعمل إلا مضطرا أو لدفع السآمة ...

وما إن دخل رفاييل مع صحابه حتى هالته آيات الترف المنبثة حوله في كل مكان، فهذه أفخر أنواع الزهور تملأ الجو برائحتها الزكية وتأخذ العين بألوانها الناضرة، أما الستائر والأبسطة فشيء من وراء التصور، فلم

يسع رفاييل إلا أن يهتف مأخوذا:

– هذه هي الحياة وإلا فلا! لقد ولدت هنا من جديد.

وماذا رأيت بعد؟ هيا بنا نصعد إلى الطابق العلوي حيث أعد الشراب كي نأكل ونشرب ونقصف، استعدادا لمعركتنا الظافرة التي نسير فيها إلى المجد فوق جميع الهامات الذليلة والرؤوس الخاوية!

وأشار بيده إلى جميع الحاضرين وهو يدخل معه إلى الصالون واسع الأرجاء باهر الأضواء التام فيه شمل جميع النابهين من أصحاب الأقلام ..

وبعد قليل ظهر رجل قصير بدين تلقاه الجميع بالتهليل، فهو موثق العقود الذي أتم في صباح ذلك اليوم جميع الإجراءات القانونية لإنشاء الصحيفة، وعلى أثر ذلك فتح حاجب يرتدي كسوة من المخمل الأسود أبواب قاعة طعام واسعة، حيث أعدت مائدة ضخمة مكدسة بألوان من الطعام الفاخر المتعدد الألوان، وشمعدانات ضخمة من الفضة فيها شموع معطرة بالمسك والعنبر تنشر أريجا شهيا، وتنعكس أنوارها لتكشف التفاصيل الفنية المذهلة لتلك الأطعمة المزركشة بالزهور والتي تتألق ألوان الدسم في طيورها كأنها طليت بالميناء أو بالذهب، فما أن رأى رفاييل تلك اللوحة الرائعة حتى أطمأن إلى أن رغبته التي صرخ بها من أعماق قلبه وهو ممسك بالطلسم في يديه قد تحققت بحذافيرها. وعلى ذكر ذلك الطلسم والثمن الرهيب الذي يحدده للملذات قال:

– لا يعنيني أن تطول حياتي في الفاقة والذلة، فما معنى الحياة في حجرة السطح الخالية من الأثاث، وفي ثوب بال، وقبعة صيفية في صقيع

الشتاء، والديون تغرقني، حتى للبواب! أريد أن أعيش في كنف هذا الترف عاما، أو ستة أشهر، لست أبالي قصر المدة.

وبعد ذلك فلأمت فإني أكون على الأقل قد استنفدت في تلك المدة القصيرة ألف حياة من النوع المبتذل!

وسمعه أميل فقال له:

- سرعان يا صديقي ما سيزحف السأم إليك وسط هذا الثراء، لأنك ستتبين أن الثروة سلبتك فرصتك في أن تكون إنسانا ممتازا. فالامتياز هو التفوق. والتفوق لا يكون إلا على مصاعب ونتيجة كفاح.

وسمع صديق العبارة الأخيرة، فلكزه في كتفه وقال:

- هذا هو الكفاح يا أميل، بين أطايب الطعام وكؤوس الشراب، فاستعد بمعدة قوية، وتأهب لتذوق هذا الأسلوب المجيد في تنسيق المائدة ... وإياك أن تفكر في أن ذلك كله من ثمرات ثراء رجل من المضاربين في السوق وفي السياسة، يسخرنا ويسخر الصحافة لمآربه، وإن ماله إنما هو من دماء الناس وأحشاء الفقراء واليتامى والأرامل، ولا تزعج نفسك كثيرا بالتفكير في هذا الرجل وهل هو إنسان شريف حقا كي نخدمه ونأكل طعامه!

فضحك رفاييل وصاح وهو يهم بالجلوس بجانب صديقه:

- ليس الآن. نسأله بعد أن نأكل حتى يكون قد ثمل، ونكون قد شبعنا .

ساد صمت في بداية المأدبة، لم يعكره إلا قليل جدا من عبارات الحديث، أمام رواء تلك المائدة، وأديرت أولا أنبذةماديرا، ثم أنبذة بوردو وبورغانديا البيضاء والحمراء، فكان هذا الفاصل الأول من المأدبة أشبه من جميع الوجوه بتراجيديا يونانية عريقة مهيبة، أما الفاصل الثاني فانطلقت فيه الألسنة قليلا، وفتحت موضوعات للمناقشة، فيها شيء من الجد والاهتمام مع قليل من الفكاهة المستمدة من الشراب، فلما رفعت بقايا الأطباق ووضعت أطباق جديدة اختلط الكلام بالطعام فصار كل واحد يأكل وهو يتكلم ويتكلم وهو يأكل، ويجيب من غير أن يصغي لأن أنبذة الرون والتوكاييي الحار تولت حل جميع العقد التي كانت في الألسنة، فانطلقت كما تنطلق الخيول المحبوسة لتمرح ساعة في مرج مترامي الأطراف من غير رقيب. حتى إذا أديرت الشمبانيا، كانت العقول قد خلعت العذار فتطرقت الأحاديث إلى موضوعات لا تخطر بالبال، وأسفرت شياطين المجون عن وجهها الحقيقي وراح كل إنسان يذم صاحبه ويدعي انفراده وحده بالمواهب جميعا، حتى حان وقت جعل جميع السادة يتكلمون فيه في وقت واحد، والخدم من ورائهم يضحكون ويتبادلون النظرات والتعليقات.

ولو أن إنسانا مضيفا نظر إلى هؤلاء الأدباء والمفكرين في سكرهم وعربدتهم العقلية، لرآهم أشبه بالبحر الهائج، الذي يريد أن يكتسح صخور الشاطئ بهجماته، فهم يضمرون نية الزعزعة لجميع القوانين التي تقوم عليها الحضارات، غير مقدرين حكمة الخالق في الجمع في الدنيا بين الخير والشر لينتج عن صراعهما المستمر تقدم الحياة والمجتمع.

وفي وسط هذه الضجة قال موثق العقود القصير البدين، وهو يشير

إلى رفاييل الذي كان من أبرز فرسان ذلك المجال:

- من هذا الشاب الذي أراه هناك؟ لقد سمعت بعضهم يناديه فالنتان...

فأجابه محدثه وهو الصديق أميل قائلا:

- وماذا دار برأسك حتى تدعوه هكذا باسم فالنتان من غير تكليف؟ إنه يا سيدي رفاييل دي فالنتان! سليل الإمبراطور فالأنس مؤسس السلالة الفالنتينية، ومدينتي ،فالأنس في إسبانيا وفرنسا، والوريث الشرعي للإمبراطورية الشرقية، فإذا كان رفاييل دي فالنتان يترك محمود الثاني على عرش السلطنة في القسطنطينية بعض الوقت، فليس ذلك إلا عن إغضاء كريم، ولنقص مؤقت في الجنود والعتاد، وضيق ذات اليد!

فأخرج الموثق كراسة مذكرات صغيرة وقيد فيها الاسم من غير تعليق...

وانصرف أميل بعدها للاشتراك في مناقشة حامية حول علاقة الشعب بالحكومة، ومهمة المجتمع في كفالة الرغد لجميع أفراده، بصرف النظر عن تفاوتهم في النسب، أو في الذكاء، أو في التربية، أو في التعليم، أو في الأخلاق.

هراء كل هذا الحديث! لا يتحدث عن المبادئ والحقوق إلا المرحومون. فالمسألة لا تساوي كل هذا العناء، ولو وزعت أنواع النعم على الناس بالتساوي لضاعت معالم النعمة، وبقى الجميع على فاقتهم، هيا نقامر على شيء أهم!

- إلى الشراب! إلى الشراب!

- من يراهنني أنني أستطيع أن أشرب زجاجة شمبانيا جرعة واحدة!

- بل أراهنك على أن الحكومة الحالية تحترم الرأي العام!

- الرأي العام أيها المغفل هو أحط مومس في الوجود! هيا نشرب!

- أنت مستريب ساقط!

- المستريبون هم وحدهم ذوو الضمائر

- المستريبون لا ضمائر لهم

- بل مصيبتهم، أيها الغر، أن لكل منهم ضميرين على الأقل! وقطع الحجاب المناقشة، بدعوة الجميع إلى الصالون لاحتساء القهوة ...

مع الحوريات

وقف المدعون بباب الصالون مبهوتين أمام ذلك المنظر الذي تضاءلت بجانبه فخامة المائدة. فتحت ثريا مذهبة ضخمة، وحول مائدة عليها كؤوس من الفضة المذهبة، بدت مجموعة من الحوريات تتلألأ عيونهن الساحرة كأنها فصوص من الماس، ويرفلن في زينة فاخرة تبرز مفاتنهن التي طغت على كل ما في القصر من نفائس التحف والجواهر.

كان بينهن تناسق معقد التركيب كما تتناسق الأنغام المتباينة أشد التباين في سمفونية واحدة، كانت كل منهن نوعا مستقلا من أنواع الفتنة والجمال. ففيهن السمراء والشقراء، وفيهن الطروب اللعوب، والمتحفظة المترفعة، فيهن الباريسية الأنيقة والمجربة الدافئة والإنجليزية المتحفظة والإيطالية التي تشعر بانهيار الحواجز بينك وبينها من أول وهلة.

ولما رأين المدعوين ينظرون إليهن تلك النظرات الشرهة المتوهجة أخذن في الدوران حول المائدة كما تضطرب ملكات النحل حول المائدة، وكأنما أوحت إليهن غريزة المرأة التي لا تشعر بها أن يعتصمن ببردة الحياء، ليكون ذلك أدعى لفتنتهن وأحض لهن في قلوب هؤلاء الرجال.

واقترب المدعون منهن في أدب وتلطف، وسرعان ما شجرت أحاديث مختلفة بعد أن أنقسم القطيع كله إلى مجموعات صغيرة.

وجلس رفاييل مع صديقه فوق أريكة شرقية وثيرة، ثم أقبلت عليهما

فتاة طويلة القامة متناسقة الأعضاء سوداء الشعر تتهدل خصلاته المتموجة على كتفيها العريضين فتبرز بياض عنقها الناصع، أما عيناها السوداوان فكانا ترسانة من السهام الطويلة على شكل أهداب كثيفة تنبعث من بينها لحاظ تحمل الفتك وتصمي القلوب! وفمها الأحمر الرطب المنفرج عن أسنان كاللؤلؤ كان يحمل دعوة صارخة إلى التقبيل! وعلى الرغم من قوتها البدنية كانت لدنة القوام رشيقة الحركات في حيوية دافقة تحت جلدها المشدود وصدرها الناهد، فكأنها تمثال من تماثيل الآلهة في معابد الإغريق حيث كان الجمال مقترنا دائما بالعافية والصحة والإقبال على الحياة، فكان ثوبها المخمل الأحمر خير إطار يحف بتلك الروضة الباهرة من الجمال والرونق، ولعلها كانت مزهوة بجمالها أو رذائلها وهي تخطر نحو الصديقين، فسألها رفاييل:

- بأي اسم تدعين؟

- اكيلينا

- أهذا أسمك الحقيقي؟

- كما يتخذ الباباوات أسماء جديدة حين يرتفعون فوق سائر الرجال. كذلك اتخذت اسما آخر حين ارتفعت فوق سائر النساء

- وهل كانت حياتك دائما في هذه المعابد ومحاريب اللهو؟

- بل كان لي يوما صاحب يؤثرني على الحياة، ثم نافستني فيه المقصلة، لهذا أوثر دائما أن يكون ثوبي أحمر اللون، كيلا أنسى

- أنت مهمومة يا فتاة لأن المقصلة هي التي سلبتك صاحبك. فأخريات أتعس منك سلبتهن أصحابهن الحياة لا الموت!

وكانت هذه العبارة الأخيرة صادرة بصوت عذب النغمات من فم مخلوقة دقيقة التكوين لطيفة الملامح كأنها طفلة بريئة من عذارى الطبقة العالية، وفي باريس دون غيرها يمكن أن يلتقي الإنسان بنساء لهن وجوه الملائكة وقلوب بنات الهوى، فتتخذ الرذيلة المتناهية ثوب الترفع والعفاف. وكانت هذه الفتاة تحمل إلى الصديقين قهوتها في ظرف ساحر، فتقبلا قدحيهما من يديها، ثم أجلسها أميل إلى جواره، وثال يداعبها:

- ألا تفكرين أحيانا في المستقبل يا فتاتي أفرازيا؟

- المستقبل؟ ها ها! ماذا تعني بالمستقبل؟ لماذا عساي أفكر في شيء لم يوجد بعد؟ إني لا أفكر أبدا فيما فات ولا فيما سيكون. لا أنظر ورائي ولا أنظر أمامي. أليس حسبي أن أشغل نفسي بحاضر أمري يوما بيوم وليلة بليلة، وعلى كل حال فمستقبل مثيلاتنا معروف لنا جيدا، إنه ملجأ المستشفى!

فالتفت إليها رفاييل متعجبا، وصاح بها:

- وكيف يمكن يا عزيزتي أن تتوقعي ملجأ المستشفى ختاما لحياتك ثم لا تحاولين تجنب ذلك المصير؟

فكانت اكيلينا في هذه المرة هي التي انبرت للرد عليه:

- وماذا في ملجأ المستشفى مما يفزعنا؟ ما دمنا لسنا بالأمهات ولا

بالزوجات. وما دامت الشيخوخة تكسو من نسج يديها سيقاننا البضة بجوارب سوداء كثيفة، وتضع على جباهنا الناضرة قناعا من التجاعيد، وتأبى ألا أن تذبل فينا كل ما هو شهي للنظر واللمس من مفاتن المرأة، فماذا يمكن أن يربطنا بعد ذلك بحياة البشر حتى نضيق بمحبسنا القاتم في ملجأ مستشفى التائبات؟

فضحكت عند ذلك إفرازيا، وعلقت بقولها:

- إنك حكيمة حصيفة وسط زوابع اليأس يا عزيزتي اكيلينا.

- أما أنا فليس هدوئي عن حكمة أو عن إذعان. هدوئي عن حماقة مقصودة، لا أريد أن أفكر في المستقبل لأنني أهزأ به وأنتقم منه مقدما بالاستمتاع بالحاضر، أعطني مليونا وأنا أنفقه في شهر، لا أريد مستقبلا مستقرا!

فسألها رفاييل بدهشة:

- ما الذي قاسيته من العذاب حتى انتهيت إلى هذا العزم يا إفرازيا؟

- كان لي صاحب. ولكن لم يكن حظي سعيدا مثل اكيلينا فيأخذه الموت مني على منصة المقصلة، بل كانت الحياة هي التي أخذته مني. هجرني في سبيل ميراث، أنا التي شقيت بالعمل ليلا ونهارا كي أطعمه في أيام فقره، فلما بدت له على الأفق فتاة ثرية نبذني ليلوذ بها، لهذا أرفض بعد اليوم أن أنخدع بوعد أو ابتسامة. وأصر أن أجعل من حياتي ليلة قصف مستمرة، أما الغد فليكن شأنه ما يكون، فإنه لا يعنيني ما دمت لا أعنيه.

- ألا تعتقدين أن السعادة تنبع من النفس لا من الترف والقصف؟

- إن السعادة في نظرنا يا سيد رفاييل هي الانتصار على سائر النساء، ولا سيما الفاضلات المصونات المترفعات، نسلبهن رجالهن، فينبذوهن من أجلنا، وبهذا نعيش في ليلة واحدة أضعاف ما تعيشه أحدى هاتيك الفضليات في حياتها كلها، هذه هي سعادتنا.

وقال أميل لرفاييل بامتعاض:

- أليست المرأة بلا عفاف شيئا بغيضا؟

فرمقتهما إفرازيا بنظرة حقد، وقالت بسخرية لا تباري:

- العفاف! الفضيلة! نحن نتركهما للقبيحات والحدباوات! فماذا يبقى لهاتيك المسكينات لو نافسناهن في ذلك أيضاّ؟

وقامت في تلك اللحظة ضجة كبيرة، قوامها الموسيقى والرقص المجنون، والضحكات الثملة، فشارك الصديقان في ذلك ما طابت لهما المشاركة، إلى أن تسلل حاجب يبحث عن رب القصر، وهمس في أذنه:

- مولاي، إن جميع الجيران بعثوا يتذمرون من هذه الضجة

- قل لهم يسدوا آذانهم!

وفي هذه اللحظة أطلق رفاييل ضحكة مجلجلة من غير سبب، بعد أن ظل مطرقا برهة طويلة، فدهش أميل، وسأله عن السبب في هذه القهقهة الانفرادية، فقال:

- إنك لن تفهمني بسهولة يا عزيزي، إلا إذا قلت لك أنك حينما

التقيت بي على رصيف فولتير، كنت متوجها لألقي بنفسي في مياه السين، ولا شك أنك تريد أن تعرف البواعث التي دفعتني إلى ذلك، ولو لم تكن سكرانا لأمكنك أن تتبين من هذه البواعث شيئا أجدي عليك من قراءة رسالة في الفلسفة.

- اسمع! إن كنت أردت أن تنتحر من أجل امرأة، أو فرارا من الملل، فأنت أحمق، اعترف بالحقيقة، ولا تكذب ولا تحاول أن تزيفها بالمحسنات، وأوجز بقدر ما يسمح لك سكرك، فأنا أحرص على الاختصار كما يحرص عليه قراء الصحف الحديثة.

- ولكن لا بد أن أوضح لك حالتي النفسية بتفاصيلها.

- دعنا من التفاصيل من فضلك، ومن المقدمات، وثق أن شعوري كله معك، وأنني لهذا أستطيع أن أفهمك بمجرد الإشارة العابرة

ثم تناول يد رفاييل واحتفظ بها في يده، وهو ينظر إليه بمزيج من الابتسام والمودة الحانية، وقد أعاره سمعه وفؤاده.

قال رفاييل:

- لست أنوي أن أثقل على آذانك بالأعوام السبعة عشر الأولى من حياتي، فقد مرت كحياة آلاف غيري في طلب العلم بالمدارس، بين البراءة وخلو البال.وبمجرد تخرجي من المدرسة الثانوية، فرض علي والدي نظاما صارما، ورتب لي حجرة من داخل حجرة مكتبه، بحيث ينبغي أن أنام في التاسعة مساء لأستيقظ في الخامسة صباحا، وأن أعكف على دراسة القانون بتفرغ كامل، ذهنيا ووجدانيا، فكان

يحاسبني ونحن على المائدة عن كل دقيقة من دقائق يومي، وبذلك عشت في جو من الخوف والرعدة كما يعيش العبيد تحت السوط إلى أن بلغت سن العشرين، ولك أن تتصور حياتي، إذا قلت لك أن والدي كان رجلا طويل القامة نحيفا. معروفا يشبه وجهه حد السكين، نذر الكلام، سريع الهياج كالعوانس، شديد التدقيق في كل شيء كرؤساء الأقلام، وإذ خطر لي أن أقول له شيئا لطيفا، تقبله كما لو كنت أهرف بما لا ينبغي، فكان خوفي منه وتهيبي له أشد من خوفي وتهيبي من أساتذتنا في المدرسة الداخلية، وظللت إلى سن العشرين وكأنني طفل في الخامسة، أرتعد متى برز أمامي في حلته السوداء نحيفا مديد القامة مثل شموع الكنائس بلونه الأصفر الكالح.

بيد أني كنت أحبه في الوقت نفسه، لاستقامته، وقوة طبعه، وإنصافه، على الرغم من صرامته، وقد علمني ذلك أننا لا نكره الصرامة حين تسندها قوة في الخلق ونقاء في السريرة ونزاهة الطبع.

وكان مصروفي حتى سن العشرين لا يزيد على عشرة فرنكات هزيلة في الشهر، أما الملاهي فكنت لا أذهب إليها إلا في صحبته. فلا عجب إن كان الظفر بعشيقة هو الأمل الذهبي الذي كان يتمثل فيه كل حنيني إلى الاستقلال. ولكن من أين وبماذا؟ ثم لا تنس أنه كان يهددني دائما عند أول سقطة أن يرسلني إلى جزر الأنتيل مع المنفيين والمجرمين. وكان هذا كافيا كي ترتعد فرائضي كلما جلست مع بعض الرفاق ساعة في مقصف أو حانة، وكان عزائي الوحيد ومنفذي للتنفيس عن آلامي وشجوني هي الموسيقى.

"وذات ليلة حدث لي حادث لازلت أذكره بالرعب ما حييت. كان والدي قد صحبني إلى حفلة راقصة لدى الدوق دي نافاران ابن عمته، ولك أن تتصورني في كسوة ليس عليها ما يذكر بجدها، ورباط عنقي أشبه بالحبل، وقفازاي لا نضرة لهما، وحذائي إلتوى من الاستعمال. فجلست في ركن منزو كي أتناول المرطبات وأملأ عيني على انفراد من الحسان الغاديات الرائحات.

ولمحني أبي فإذا به يقدم على عمل لم أكن أتوقعه منه، حتى أنني ذهلت، فلم أستطع الكلام حين أعطاني كيس نقوده ومفاتيحه لأحفظها له، ثم انصرف عني، وعلى قيد عشر خطوات مني ألتف بضعة رجال حول مائدة اللعب فكنت أسمع رنين الذهب على المائدة، وكان حلمي، وأنا في العشرين، أن أقضي يوما كاملا غارقا في عبث أندادي. وكانت هذه المغامرة في تقديري تحتاج إلى مائتي فرنك أو نحو ذلك، فعقليتي الساذجة لم تكن تتصور نفقة تزيد على هذا المبلغ التافه.

ومن غير أن أدري ماذا أصنع، وجدت نفسي أفتح كيس أبي وآخذ منه قطعتين من ذوات العشرين فرنكا، أتمثلهما بعيني الآن وقد ذهب الاستعمال بملامح نابليون من وجهيهما، وبعد أن وضعت الكيس في جيبي اتجهت نحو مائدة اللعب والجنيهان الذهبيان في راحة يدي المبتلة بالعرق، وجعلت أحوم حول اللاعبين، كما يحوم الثعلب حول بيت الدجاج، وتحت تأثير فزع لا يوصف جعلت أتلفت حولي لأتأكد أن أحدا من الحاضرين لا يعرفني، ثم ألقيت الجنيهين مراهنا على أحد اللاعبين توسمت فيه نقيض صفات أبي، فهو قصير بدين ضاحك السن، ثم اتجهت إلى الباب وأعطيت المائدة ظهري.

ولكني بحاسة سادسة كنت أحس بجميع حركات اللعب وأصغي لجميع التعليقات وأتتبع المعركة التي يتوقف عليها مصير مغامرتي أو هلاكي، والعرق يتصبب على جبيني لأن أقدامي على سرقة مال أبي كان يعذبني، ولكن رغبتي المكتومة كانت أقوى من كل مقاومة.

وانكشفت الجولة الأولى عن كسب قيمته عشرة جنيهات، فأعدت جنيهي أبي إلى كيسه وأعطيت الربح للسيد البدين كي يستأنف اللعب لحسابي، وكان الحظ حليفه على طول الخط بحيث تجمع لي أكثر من مائتي فرنك ربطتها جيدا في منديلي بحيث لا تصل أو تحدث صوتا بأي حال من الأحوال أثناء عودتنا إلى البيت أنا وأبي.ثم غادرت قاعة اللعب على عجل وأنا لا أصدق نفسي .. وفي الطريق إلى العربة قال لي أبي:

- ماذا كنت تصنع في قاعة اللعب؟
- كنت أتفرج
- لم يكن هناك جناح أن تحفظ مظهرك بالمشاركة في اللعب بمبلغ محدود، فأنت الآن في اعتبار المجتمع قد بلغت سنا تخول لك ارتكاب شيء من الحماقة والمنكر لابد منهما لكسب الاحترام العام، ولهذا كنت حريا أن أغفر لك يا رافاييل لو أنك أقدمت على استخدام كيسي لهذا الغرض ...

ولم أجب. حتى إذا دخلنا البيت أعدت إلى أبي مفاتيحه وكيس نقوده. فلما دخل حجرته أفرغ الكيس على المدفأة وعد ما فيه من الذهب ثم التفت نحوي وقال لي بتؤدة، وهو يضغط على مخارج الحروف:

- إنك الآن في العشرين يا ولدي، وأنا راض عن سلوكك وخلقك كل الرضى، ولابد لك منذ الآن من مرتب معقول، حتى ولو لم تستخدمه إلا في التدرب على الادخار أو التعرف إلى حقائق الحياة!

- أمرك يا أبي

- كم تريد؟

- الرأي كله لك يا والدي

- سأخصص لك مائة فرنك شهرية منذ الليلة، وستكون مطلق الحرية في التصرف في نقودك على الوجه الذي يحلو لك، وهاك ثلاثمائة فرنك راتب الأشهر الثلاثة الأولى من هذا العام...

وجعل يداعب بأنامله عمودا من الذهب كان قد أعده وكأنه يتحقق من قيمته بحركته المدربة، واعترف أنني أوشكت في تلك اللحظة أن ألقي بنفسي على قدميه وأصرح له بالحقيقة، وهي أنني كنت لصا مختلسا. بل ما هو أسوأ من ذلك كله، كنت كذابا مخادعا! بيد أن الخزي منعني، واكتفيت بالتقدم نحوه لأقبله شاكرا، فصدني برفق وقال:

- إنك الآن يا ولدي رجل، وما قررته الآن أمر طبيعي في حد ذاته وإجراء عادل لا أستحق عليه شكرانا ...

وبعد أن صمت لحظة استطرد بلهجة أرق:

- لئن كان هناك ما أستحق عليه امتنانك يا رفاييل، فهو أنني صنت شبابك من الرزايا التي تستهلك سائر الشبان في باريس، ومنذ اليوم

سنكون صديقين، فإنك ستحصل على أعلى إجازات القانون بعد سنة، لأنك استطعت بالمشقة والحرمان والجد أن تحصل المعارف العميقة وتكتسب الداب وحب العمل الضروريين لرجل تندبه الحياة لتصريف جلائل الأمور والأعمال، فأجتهد يا رفاييل أن تعرفني على حقيقتي وتفهم نواياي، أني لا أريد أن أجعل منك محاميا أو قاضيا أو موثق عقود.

فتطلعت إليه في دهشة واستطلاع. وبعد أن ثبت عينيه في عيني لحظة استطرد يقول بتؤدة شديدة:

– أعلم يا رفاييل أنني أريد أن أجعل منك رجلا من رجال الدولة يغدو بمجده وارتفاع صيته عزا وسؤددا لبيتنا الفقير .. ويكفيك الليلة هذا القدر، والآن اذهب لتنام، وإلى الغد .

ومنذ ذلك اليوم جعل والدي يطلعني على جميع أعماله ومشروعاته بكل صراحة وتفصيل، لأني كنت الأبن الوحيد، وكنت قد فقدت والدتي وأنا في العاشرة ...

قال رافاييل:

– ولما عادت الملكية ردت إلى والدتي أملاك شاسعة بحكم سلالتها النبيلة، ولكنه في الوقت نفسه قضى على ثروة أبي الذي كان قد اشترى بمعظم ثروته ضياعا مما كان الإمبراطور قد منحها لقواده في البلاد الأجنبية فبسقوط الإمبراطور سقطت جميع نعاماته وما ترتب عليها، فلما بلغت العشرين من عمري كان قد قضى عشر سنوات

في المقاضاة والمفاوضة مع المكلفين بالتصفية والدبلوماسيين وفي المحاكم البروسية والبافارية لاسترداد حقوقه، وبحصولي على إجازة القانون ألقى بي أبي في ذلك التيه من القضايا التي يتعلق بها مستقبلي وكان الحكم علينا برد جميع الإيرادات التي حصلنا عليها فيما بين سنة ١٨١٤ وسنة ١٨١٧ معناه أن تذهب معظم ثروة أمي المستعادة لإنقاذ إسمنا من العار في حالة إشهار الإفلاس، ومن هذا ترى أيها الصديق أن المسئولية التي طرحها أبي على كاهلي كانت ثقيلة بغيضة وأنه صار من واجبي أن أناضل في ساحة قتال مترامية الأطراف، واشتغل ليل نهار في إعداد المذكرات ومقابلة رجال الدولة والاجتهاد في استمالتهم إلى صفنا هو ونشاؤهم وخدمهم وكلابهم، مع تمويه ذلك التزلف بالفكاهة والظرف والأناقة.

وقضيت العام الأول كما يقضيه أبناء الذوات في الظاهر، وكما يقضيه المسخرون الأرقاء في حقيقة الأمر، فسهراتي ولهوي كلها كانت مرافعات أو مذكرات مقنعة، وحتى ذلك الحين كنت محتفظا بعفتي لاستحالة التخلص منها، أما بعد ذلك فكانت استقامتي فرضا فرضته على نفسي خوفا من الإطاحة بمسئوليتي الثقيلة، إذا غفلت عنها لحظة. وكنت راغبا في تبرير ثقة أبي بي ومساعدته بالتدبير والاقتصاد فضحيت بمسراتي وكنت سعيدا بتلك التضحية.

"فلما صدر قانون يقضي على والدي أن يرد إلى الملاك الأصليين جميع ما استفادة من الإيراد، أقدمت على توقيع بيع ممتلكاتي التي ورثتها عن أمي لإنقاذ شرف أبي من غير تردد، ولم أحتفظ من جميع تلك الأملاك إلا بجزيرة لا قيمة مادية لها قائمة في وسط نهر اللوار، وفيها قبر والدتي.

وكانت الدموع التي رأيتها في عيني أبي عندئذ خير عوض لي، بل كانت أجمل في نظري من كل ثراء مادي، وما والت ذكرى هذه الدموع تحمل لي الكثير من العزاء في لحظات شقائي، بيد أن حزن أبي كان شديدا فمات غما بعد عشرة أشهر من الوفاء بجميع التزاماته، ووجدت نفسي في أواخر خريف سنة ١٨٢٦، وأنا يومئذ في الثانية والعشرين من عمري، اتبع بمفردي نعش صديقي الأول، أب، وبعد ثلاثة شهور تسلمت ألفا ومائة واثنى عشر فرنكا هي صافي ما تبقى من تركة أبي بعد بيع جميع أثاث بيته، ولم أجد لي صديقا سوى وصيفا عجوزا كانت والدتي قد رتبت له معاشا سنويا مقداره أربعمائة فرنك، وهو جوناثاث. وعلى مضض غادرني الرجل وهو يوصيني بالتدبر والاقتصاد.

وهذا هو موقفي يا عزيزي أميل بعد فقد أبوي وقد تحكم القضاء في مستقبلي ومكانتي الاجتماعية، وكانت صلات القرابة تربطني ببضعة من أغنى بيوت فرنسا، بيد أن أبوابها أقفلت في وجهي بسبب كبريائي، إن لم تكن قد أقفلت بما أجده هناك من إهمال وازدراء.

وهكذا أيضا حرمت من حماية الأقارب على قوة نفوذهم وكثرة عددهم ، وأشق ما في الأمر أن ذلك الفقر جعل من المستحيل على أن أظفر بقلب سيدة من ذوات المكانة الرفيعة. فلا بد لذلك من الثراء والمظهر أو الشهرة والنفوذ، فلم يبق أمامي إلا أن أقيم لنفسي شهرة أدبية كبيرة تضمن لي الأعجاب والاحترام، وبعبارة أخرى تراءى لي أن الظفر بمجد أدبي باذخ أمر أيسر وأقل مشقة من الظفر بامرأة ذات جمال وعقل ومنصب، لأني علمت أن المرأة لا تنقاد أبدا لمن يستجديها بل لمن يأخذها

أخذ الواثق، وبذلك احتفظت في أعماقي بكل لهيب الشوق الذي كان يمزقني، وعولت على الانتقام من المجتمع لكل ما اقترفه في حقي من الإهمال والازدراء والحرمان، عن طريق السيطرة الأدبية والفكرية بحيث أحتكر نظرات الأعجاب من جميع الحسان. ودققت رأسي بيدي وأنا أهتف بكلمة أندرية شينييه المشهورة:

إن شيئا له خطره يمكن هنا!

واستقر في نفسي أن عندي رسالة عبقرية يجب أن أبهر بها العالم وأهديه، وكنت غرا حين اعتقدت أن هذا هو الطريق إلى قلوب النساء، فاليوم أيها الصديق وقد بلغت السادسة والعشرين أستطيع أن أقرر لك أن النساء لا يرين بفطرتهن في الرجل الموهوب إلا نقائصه ومساوئه، أما الرجل العتل التافه فلا يرين فيه إلا جانبه المشرق.

وأحسب ذلك ناتجا عن تفاهتهن. فيرين في مزايا الرجل التافه تحية أبدية لتفاهتهن. في حين أن الرجل الممتاز لا يقدم لهن ذلك الشعور اللذيذ بالرضى عن النفس، لذاته التي يتيحها لهن لا يمكن أن تعوض لهذا السبب تلك النقائص التي يفتشن فيه عنها لتتعزى بها نفوسهن عن الفرق الهائل بين امتيازه وتفاهتهن!

إن الرجل الموهوب أو العبقري لا يمكن أن تدع له عبقريته فراغا من الوقت يصرفه في الحومان حول أريكة كل أنثى، والإتيان بالحركات البهلوانية كالنسانيس، مع أن تلك الحركات هي لذة النصر الوحيدة التي تشعر بها المرأة أمام الرجل حين تراه يتضاءل أمام رغبته في الحصول عليها،

فالعبقري لا يجد وقتا لأعماله الفذة، فكيف يمكن أن يجد وقتا لنزوات النساء؟ ولهذا أيها الصديق أعتقد أن الطراز الممتاز من الرجال لا تصلح له إلا نساء شرقيات كل همهن في دراسة أهواء رجالهن والعمل على إرضاء تلك الأهواء. ولكني كنت في الثانية والعشرين غرا لم يجرب الحياة، فقررت أن أعتزل العالم بضع سنوات أتم فيها عملا فكريا مذهلا يضمن لي المجد بضربة واحدة، أو أموت وأدع الحياة بضربة واحدة أيضا، كان رهانا هائلا بيني وبين نفسي كنت أنا فيه الفرس والمراهن في آن واحد، وانحصرت خطتي في تقسيم الألف ومائة فرنك على ثلاث سنوات تكفي لإنجاز ذلك العمل الذي يفتح لي أبواب الشهرة والثراء. على أن أعيش تلك السنوات الثلاث على الخبز القفاز أو ما يقرب من ذلك مثل النساك الأقدمين، لا في الصحراء بل في وسط باريس.

وتمثلت نفسي مدفونا ثلاث سنوات في قبر من صنع يدي كما تدفن حبة الحنطة إلى أوان معلوم كي تخرج عودا فيه سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، ومن طلب الموت وهبت له الحياة!

وبهدى من هذا العزم رحت أنشد مسكنا في أكثر أحياء باريس إقفارا من الناس، وذات مساء عثرت في حارة خلفية هادئة على فندق سان كنتان الذي تديره سيدة طيبة القلب في نحو الأربعين من عمرها ذهب البكاء بلمعان عينيها بعد أن فقدت زوجها الكولونيل في حملة نابليون على بلاد الشرق، ولها ابنة وحيدة أشبه بالملائكة في رسوم كبار فناني عصر النهضة، ولما ذكرت لتلك السيدة حدود الأجر الذي أنشد به حجرة لم تدهشني وقادتني إلى حجرات السطح حيث أدخلتني حجرة تطل على

الأسقف وأفنية البيوت المجاورة التي شدت فيها حبال الغسيل، وكانت والحق يقال حجرة كئيبة صفراء الجدران قذرة. وسقفها المنحدر فيه شقوق تظهر منها رقعة السماء، وفي أرضها موضع لفراش ومنضدة وبضع مقاعد، وفي الناحية التي يصل فيها السقف إلى غاية انحداره أستطيع أن أضع البيانو الذي تبقى لي من ميراث أمي، وقبلت ربة الفندق أن تؤجرها بدراهم بخسة لا تتجاوز فرنكين في الشهر، ومن اليوم التالي نقلت أثاثي إلى هذه الحجرة وقضيت في ذلك المحراب المرتفع المنعزل عن المجتمع قرابة ثلاث سنوات. يدفعني بؤس المكان وصوت الحرمان إلى الانكباب على العمل بغير هوادة ليلا ونهارا ،لأن الدراسة كانت هي الحل الوحيد السعيد لجميع مشاكلي ومنها الحياة في هذه الحجرة

وأخذت في تحضير مؤلفين كبيرين، أحدهما كوميديا رائعة، فلما أتممتها كان نصيبي من جميع النقاد وأهل الفكر السخرية اللاذعة واتهموني بالسذاجة وقلة التجربة وبلاهة التعبير، فكان ذلك كافيا للقضاء على أجنحة عبقريتي المسرحية الباثقة، وأذكر أنك كنت وحدك يا عزيزي أميل الذي أطرى مواهبي وحاول تعزيتي في محنتي الأدبية، أما الكتاب الآخر فهو نظرية الإرادة، وفي سبيل ذلك العمل الفلسفي الطويل تعلمت اللغات الشرقية ودرست التشريح ووظائف الأعضاء وخصصت لذلك الجزء الأكبر من وقتي.

وفي الشهور الأولى من إقامتي في زنزانتي كنت أقوم على خدمتي بنفسي فأنزل كل صباح قبل أن يصحو الجيران فأجلب الماء في دلو واشتري حاجات نهاري المحدودة ثم أكنس حجرتي التي كنت أنا فيها الخادم والسيد في آن واحد، وفي خلال تلك المدة كانت ربة الفندق هي وابنتها

تتجسسان تصرفاتي وسلوكي. وأحسنتا فهم ظروفي بسبب فاقتهن الشديدة، فكانت الأبنة بولين تقوم بعد ذلك بالخدمات التافهة من تلقاء نفسها في رقة لم يطاوعني قلبي على صدها، وكانت والدتها لا تبدي ممانعة في قيامها على خدمتي معظم الوقت. وكم من مرة رأيت الأم بنفسها ترتق ثيابي خلسة ويحمر وجهها حين أضبطها مقبلة على ذلك العمل، فانتهى بي الأمر إلى الإذعان لكرمهما وتسليم نفسي لرعايتهما الكاملة.

وكم من مرة كان انصرافي إلى العمل سبع ساعات أو ثمان على التوالي ينسيني طعامي فأرى بولين الملائكية تصعد بخطوات صامتة حاملة إلي طعامي الزهيد، وهي تبتسم لي في سذاجة الطفولة وحنان الأمومة.

وذات مساء قصت على بولين وأنا أتناول طعامي قصة حياتها بطريقتها الساذجة المؤثرة، كان والدها كولونيلا في فرسان الحرس الإمبراطوري، وفي حملة نابليون على الروسيا، عند بريزينا أسره القوزاق ورحلوه إلى سيبيريا، فلما اقترح نابليون تبادل الأسرى بحثوا عنه عبثا في تلك البلاد الشاسعة لأنهم كانوا قد نسوا أين وضعوه، ثم قال بعض الأسرى الآخرين أنه هرب من هناك على نية الذهاب إلى الهند ومنذ ذلك الحين لم يسمع عنه خبر، فلما سقط نابليون حرمت الزوجة والأبنة من المعاش فأكرهتهما الحالة على افتتاح ذلك الخان المتواضع في انتظار عودة رب الأسرة، فهذا الأمل لم ينقطع من قلب الزوجة الباسلة، وكانت راضية بقسمتها لا يحزنها إلا شيء واحد، هو اضطرارها إلى ترك بولين من غير تعليم لائق بأبنة كولونيل وبارون.

"ولن أنسى وجه مدام جودان وهي تطلعني على الصحيفة المزركشة التي تحمل توقيع الإمبراطور، وهي براءة الإنعام عليه بلقب البارون، وأكدت لي أنها مستعدة للتنازل عن هذا التراث الوحيد الباقي لها في نظير الحصول على تعليم لائق بابنتها، واقترحت أن أقوم بهذه المهمة وفاء ببعض فضلهن، فقبلنا بسرور ساذج ملأ قلبي بالتأثر، وبهذا أيها الصديق بدأت أشعر بشيء من الترويح يدخل في حياتي.

ووجدت في بولين تلميذة طيبة طيعة حسنة الاستعداد، وسرعان ما أصبحت تجيد العزف على البيانو خيرا مني وتعودت أن تفكر بصوت مسموع أمامي لشدة تمكن الألفة بيني وبينها.

وكانت أمها تنتهز فرصة غيابي لحضها على الصعود كي تتمرن على البيانو، حماية لها من الاختلاط بالمستوى المنخفض من الجيران، بعد أن بدأت محاسنها في التفتح والنضوج، حتى إذا عدت إلى صومعتي وجدت بولين هناك في ثياب البيت البسيطة المتواضعة.

وكانت كالوردة الناضرة بكنوز جمالها الطبيعي الفاخر، إلا أن هذا الجمال لم يكن يؤثر في لأني كنت قد فرضت على نفسي ألا أكون لها سوى أخ، وكنت أفزع من مجرد فكرة خيانة الثقة التي أودعتني إياها والدتها، فكنت أكتفي بالإعجاب بهذه الفتاة الفتانة كما لو كانت رسما بارعا أو صورة سيدة من سيدات العصور الغابرة.

بل كان هناك شيء أكثر من هذا كله يكفني عن حب بولين التي كانت لا تتحفظ معي ولا تتمنع علي بسذاجة قلبها البريء، ذلك أيها

الصديق لأننا أحرار في التخلي عن امرأة تبيعنا حبها، فالبضاعة التي في السوق لنا أن نقبل عليها في أي وقت أو ننصرف عنها، أما الفتاة التي تهبنا نفسها هبة خالصة بغير مقابل وهي تجهل مدى تضحيتها، فتلك أيها الصديق لا خيار لنا في هجرها أو التخلي عنها بعد أن نحبها أو ندعها تحبنا، وما كنت لأتأخر عن حبها لو كنت عازما على الزواج منها، ولكني كنت مدركا تمام الإدراك إن زواجي من بولين حماقة شديدة، فهو على الأقل حكم على تلك النفس الطاهرة العذبة بالحياة في شقاء لا يد لها فيه، ثم إن أنانية فاقتي كانت تفرض سلطانها على نفسي كأنها يد من حديد تحول بيني وبين هذه المخلوقة، فما كنت لأتصور حبي ومتعتي بهذه الفتاة مهما اشتدت تعزيتي إلى الأبد عن المجد والنجاح في المجتمع. ذلك النجاح الذي يعوقني عنه زواجي من مثلها.

وإلى الشتاء الماضي ظلت حياتي هادئة ليس فيها غير الدراسة.

وفي أوائل شهر ديسمبر سنة ١٨٢٩ التقيت بصديقي راستنياك الذي كان زميلا لي في المدرسة، ولم تحل زراية ملابسي وفاقتي الظاهرة دون عناقه لي واهتمامه بأمري اهتماما أخويا، فلما أخذت بمظهره البراق وأبهته في ملبسه ومركبه ذكرت له حقيقة متاعبي وشرحت له خطتي التي مضيت فيها بإصرار وجلد، فانطلق يقهقه وينعتني بالعبقرية والبلاهة معا على طريقته الفسفونية في حب الحياة، وقال لي مازحا:

- يجب أن تختلط بالناس لتعودهم النطق باسمك، فهذا هو السبيل الوحيد إلى الشهرة والنجاح، ليس المهم أن تعمل شيئا خارقا، بل

المهم أن توهمهم أنك تصنع الخوارق، هذه هي طريقتي يا عزيزي، ولهذا تشقى أنت وتنصب ولا تصل إلى شيء، وألهو أنا وألعب وأصل إلى كل شيء، أختلط بالناس وأبدو أمامهم وجيها مستغنيا، وأتحدث دائما عن كتب لم أقرأها ومؤلفات أتممت تدبيجها ولم أحد منها شيئا، ويصدقني البلهاء لأني أتكلم بلهجة الواثق وأمتدح نفسي غير منتظر من أحد أن يتكرم بذلك، أنا أكبر داعية لعبقريتي التي تنحصر في إتقان الدعاية لنفسي، وبذلك انفق عن سعة وأستدين وأجد ما أسدد به ديوني، فرأس مالي هو معرفتي بالناس ومظهري المنتفخ، وبهذا أيها العزيز أجد دائما من يضمنني لأن إفلاسي فيه إساءة للأوساط التي جعلت نفسي نجما من نجومها، فتنهال علي عضوية الشركات، ومراكز الشرف في النوادي، وأجد عروضا للزواج من أرامل ذوات ثروات يضعنها تحت أقدامي حبا في مظهري الاجتماعي ولهذا أريد منك أن تبدأ من الآن في تعويض ما فاتك بتلك العزلة الحمقاء، فأحضر غدا لأقدمك بنفسي في بيت تجتمع فيه باريس بأسرها، أعني باريس اللامعة صاحبة الملايين، فهذا المجتمع حين يحتضن كتابا يضمن له المجد والشهرة، وفي يدك إذا أحسنت التصرف أن تجعل العالم كله يعتنق نظريتك في الإرادة منذ الآن قبل طبعها، غدا مساء يا رفاييل سأقدمك في صالون الكونتس الحسناء تيودورا ملكة باريس الحالية!

- لم أسمع بها من قبل؟

- لأنك من أهل الكهف! ولولا هذا لما جهلت تيودورا التي يبلغ إيرادها السنوي مائة ألف جنيه ومع هذا ترفض الزواج، إنها الحسناء لغز

باريس الغامض التي تختلط فيها الدماء الباريسية بالدماء الروسية. والآن وداعا إلى الغد.

وتركني من غير أن ينتظر جوابي كأنه يستبعد أن يرفض عاقل مثل هذا العرض. وكيف أعرب لك عن التأثير السحري الذي أحدثه في نفسي ذلك الاسم الموسيقى "تيودورا"، على شوقي المكتوم وأحلامي المحمومة بالحسان الجميلات ذوات الألقاب والمكانة والكبرياء

ولم استطع في اليوم التالي أن أواصل أبحاثي الفلسفية لاضطراب ذهني، فاستأجرت رواية أقطع بها الوقت، ولكن اسم تيودورا جعل يتراقص أمامي بين السطور.

وكان قد تبقى معي لحسن الحظ نحو خمسين فرنكا، وبدلة واحدة سوداء وصدار أبيض أدخرهما للمناسبات الكبرى ولا أرتديهما.

فنهضت ورحت أصلح شأني وأتجمل ثم ذهبت لأشتري قفازا جديدا نظيفا، أنا الذي كنت لا أنفق على طعامي إلا بعد حساب كل سنتيم ونصف سنتيم، ولكن هكذا خلقنا الله لا نستكثر على ملذاتنا وشهواتنا أضعاف ما نبخل به على الضرورات.

وفي الموعد وجدت راستنياك ينتظرني، وأعجبه مظهري فجعل يمزح ويسخر ليذهب عني الرهبة، وأخذ يلقنني السياسة التي يجب أن أسلكها كي أفوز بإعجابها وأظفر بجواز الدخول إلى صالونها على الدوام، وعلى أي أساس ينبغي أن أعالم ضيوفها، في غير اهتمام زائد، لأشعرهم بذاتيتي.

امرأتان في امرأة

قال رافاييل:

كان قلبي يخفق خفقانا شديدا أخجلني وأنا أصعد ذلك السلم الواسع المفروش بالبساط الفاخر وسط كافة أنواع الترف على الطريقة الإنجليزية، ثم لمحت امرأة في نحو الثانية والعشرين من عمرها، متوسطة القامة، مرتدية ثوبا أبيض ومن حولها حلقة من الرجال، وفي يدها مروحة من ريش الطاووس. وما إن لمحت راستينياك داخلا حتى نهضت وأقبلت نحونا تبتسم في ظرف، وحيتني بصوت رخيم مثنية على مواهبي التي لا أشك أن راستينياك ألصقها كان قد حدثها عن تواضعي وحيائي، فكان ذلك شفيعا كافيا للارتباك الذي وقعت فيه.

والتقيت هناك بعلماء، وأدباء، ووزراء سابقين ونبلاء من أعضاء مجلس الأعيان، ولما شعرت أن على مسئولية إثبات سمعتي، جعلت همي أن ألخص المناقشات الدائرة في عبارات لامعة خفيفة الظل كان لها صدى حسن.

ولما ازدحم الصالون ازدحاما يسمح لكل واحد بالتصرف على هواه، جذبني راستينياك من ذراعي إلى صالون آخر وقال لي:

– لا تظهر الانبهار التام بالأميرة، وإلا فظنت إلى الباعث الحقيقي لزيارتك.

وتنقلنا بين القاعات فوجدتها مفروشة بذوق نادر وبذج ظاهر على الأسلوب الإنجليزي الذي يجعل لكل حجرة طابعا خاصا في جميع التفاصيل، ولما رأى راستنياك إعجابي باللوحات والستائر والأثاث ابتسم في تهكم خفيف وقال:

- حينما تنجح في الاستيلاء على قلبها كما تنشد ستجد نفسك في خير مسكن، أليس في هذا ما يغريك بالاجتهاد في الغواية؟

ثم أخذني من يدي فجأة وقادني إلى حجرة النوم، وأراني سريرا وثيرا يثير الخيال ويلهب الحواس بستائره البيضاء واتساعه زخرفته.

ثم قال هامسا:

- ألا ترى في ترك باب مخدعها مفتوحا وفراشها معرضا للأنظار شيئا من عدم الحياء والوقاحة والتباهي المتبجح بهذا العرش من عروش الحب، إنها تأبى الاستسلام لأي أحد. وفي الوقت نفسه تبيح لكل إنسان أن ينظر أين تنام؟ ولو كنت خالي القلب لشاقني أن أرى هذه المرأة ذليلة تبكي على بابي ...

- وهل أنت واثق إلى هذا الحد من عفتها؟

- إن أشد أساتذتنا في فنون الغرام جسارة وأكثرهم حذقا اعترفوا جميعا بالفشل لديها، ومع هذا لم يلبثوا أن أحبوها، واحتفظت بصداقتهم المخلصة، أليست هذه المرأة لغزا غامضا؟

فأثارت عندي هذه الكلمات نشوة مستعذب، لأن غيرتي كانت

تخشى من ماضيها. فلما استرحت من هذه الجهة عدت بسرعة إلى الصالون. وهناك استوقفتني الكونتس بابتسامة وأمرتني بالجلوس بقربها، وجعلت تسألني عن أعمالي وأبحاثي، وأظهرت اهتماما شديدا بها ولا سيما حينما ترجمت لها مذهبي الفلسفي إلى مداعبات وفكاهات، ولم أستعمل اللهجة التعليمية الجافة، وسرها كثير أن تعلم إن الإرادة البشرية مادية شبيهة بالبخار، وأنه لا يوجد في مجال الأخلاق ما يمكن أن يناهض تلك القوة متى تدرب صاحبها على تركيزها وتوجيهها، وأن من الممكن بواسطتها التأثير على جميع الناس، بل على القوانين الطبيعية المطلقة.

ودلتني استفساراتها واعتراضاتها على تمتعها بدقة ذهنية، وحرصت أن أوافقها على بعض الأمور كي أرضيها وآسرها. ثم قضيت على حججها بكلمة واحدة حين وجهت انتباهها إلى شيء يحدث في الحياة كل يوم وهو النوم، وجعلت أحلل الأحلام علميا وأفهمها .. وراحت تبتسم لي في ظرف، وحيتني بصوت رخيم مثنية على مواهبي..

إن أفكارنا كائنات مستقلة تعيش في عالمها الخاص وتؤثر على مصيرها، ونجحت في إثارة إعجابها بحيث دعتني للحضور لزيارتها كل ما استطعت.

وقضيت بقية السهرة أراقبها وأحاول دراستها مستعينا بكل ذكائي ومعرفتي، ولاحظت فيما لاحظت أن بعض حركاتها تحمل من الدلال المثير ما يدل على تضلعها في فنون اللذات، فشككني ذلك في عفتها المزعومة، فهي على الأقل عرفت هذه الأشياء فيما مضى، وهي تشتغل معرفتها

السابقة في اتخاذ الأوضاع التي تعلم قوة أثرها في جلسائها، ويخيل إلى أنني أقرأ عواطفها الحارة مكتوبة على جفونها الإيطالية وكتفيها الجميلتين الجديرتين بفينوس، وشفتها السفلى المليئة.

ومن هذه الملاحظات عرفت أنها لا يمكن أن تكون باردة في أعماقها كما تتظاهر، وإنما تيودورا في الواقع امرأتان منفصلتان تماما عند الخصر، أحداهما باردة، أما الأخرى فعقل يعشق بحساب، ويراجع كل حركة بروية، فزاد ذلك من اهتمامي بها وعزمي على امتلاكها، وخرجت من عندها ثملا بترفها وبسحرها.

وفي طريقنا قلت لراستنياك رأيي وعقبت على ذلك:

- ربما كان زواجها الأول من ذلك العجوز الروسي صفقة تجارية جعلتها تتقزز من الحب بتأثير ليلة الزفاف.

ولما عدت في تلك الليلة إلى حجرتي العارية الباردة كانت مخيلتي وأعصابي لم تزل مشحونة بصور البذخ في قصر تيودورا، فكان ذلك التفاوت الشديد عاملا قويا في إثارتي، ولابد أن الجرائم تنشأ على ذلك النحو. فرحت ألعن، وأنا أرتعد غيظا، فاقتي الشريفة وحجرتي التي نبتت فيها معظم أفكاري، وجعلت أحاسب على شقائي الخالق والشيطان والهيئة الاجتماعية وأبي العالم أجمع، ثم نمت جائعا محموما، ولكني معقود العزم على إغواء تيودورا وامتلاكها، فقلب هذه المرأة هو ورقة النصيب الأخيرة التي يتعلق بها مستقبلي، ولهذا جعلت منذ اليوم التالي أتقرب إلى قلبها بجميع الوسائل

وهنا أستميح نفسي أن أفضي إليك بسر، لا شيء يرضي المرأة مثل تحريك نفسها بالانفعال، فإذا لم تفلح في تحريك امرأة بالسرور واللذة، لا تتردد في تحريكها بالغضب، فذلك خير لك من أن تتركها فاترة معك.

ولكن ما أضعفنا نحن الرجال! لقد بدأت وفي نيتي أن أصيدها وأوقع بها في حبي، ولكن انتهى الأمر بعد أيام من غير أن أشعر أن انقلب الصائد فريسة ووجدت نفسي غارقا في حبها إلى الآذان، ولكم من ساعات قضيتها حينئذ مستغرقا في نشوة لا فكاك منها، قوامها الوحيد النظر إليها، ولست أدري الآن ماذا كان سر تلك السعادة الغريبة؟

لم يكن شعوري نحوها إعجابا ولا اشتهاء، وإنما هو افتتان، نوع من القضاء والقدر نزل بي فلم أستطع منه فكاكا، كنت كالنائم أعود أحيانا إلى حجرتي المعهودة في السطح فإذا بي كالمأخوذ أو كالمسحور، تتراءى لي تيودورا في محيط بيتها رأى العيان، فأشاركها وأتتبعها في حياتها الخاصة عن بعد، فإذا حدث أن تعذبت أو أصابها صداع أو انقباض أو كدر، كنت أحس بذلك على الفور، وفي اليوم التالي كنت أقول لها:

- لقد حدث لك كدر في وقت كذا بالأمس.

وكم من مرة كانت تعرف بصدق إحساسي الذي يدل أوضح الدلالة على القدرة الخارقة للطبيعة التي توجد بين العاشقين برغم تباعد المكان.

وكم من مرة استطعت أن استدعي طيفها في سكون الليل إلى حجرتي بقوة إرادتي وعاطفتي، وأحيانا كان يمد طيفها يده فيقصف ريشتي، أو يفزع العلم والبحث فيهربان مروعين، وأحيانا ثالثة كنت أذهب أنا إليها على

جناح الشوق بقوة الخيال فأسمع صوتها الفضي ثم انتبه للواقع فأنفجر باكيا.

كنت أحتفظ بمظهري حين أزورها، حتى إذا خرجت من قصرها سرت على قدمي إلى بيتي، وكان بين قصرها وفندقي في شارع الحبالين مسافة ما بين أول باريس وآخرها تقريبا، ولكن نشوة الحب كانت تخيل إلى أن الطريق قصير، كان البرد قارصا في منتصف الليل، ومع هذا كنت أشعر بالدفء يسري في أوصالي من حماسة الهوى.

ولا يستطيع أن يدرك ما يكلف الحب فتى فقيرا مثلي من العربات والملابس والقمصان والقفازات إلا من جرب فاقتي الماحقة، ولا شك أن استطالة الفترة الأفلاطونية في أي علاقة غرام تكون عامل خراب ودمار للعاشق الفقير.

وقليلا قليلا حصلت على امتياز الألفة بيني وبينها، فكانت تطلب مني أحيانا أن أصحبها إلى مقصورتها في الأوبرا، حيث أرى الدنيا وأراها، وتنبسط أمامي الآمال أن يقترن اسمي يوما باسمها على الدوام.

وفي ذات يوم، وكانت قد وعدتني أن تذهب معي إلى المسرح، غيرت رأيها فجأة، وأبت أن تخرج، ثم رجتني أن أتركها وحدها، فامتعضت لذلك التكدير الذي كلفني يوما من أيام العمل، وآخر جنيه كان معي، فقررت أن أذهب وحدي إلى المكان الذي كان من المفروض أن تذهب إليه معي.

"وما إن جلست حتى تلقيت في فؤادي صدمة كهربائية، وهتف بي هاتف أنها هناك، فالتفت وإذا بالكونتيس داخل مقصورتها متوارية بالظل

في الطابق الأرضي، ولمحتني تيودورا فقطبت جبينها وضايقها اكتشافي إياها، وفي الاستراحة الأولى توجهت إلى مقصورتها، ولما لم أجد معها أحدا بقيت.

ولم أكن قد كاشفتها بكلمة واحدة عن حبي لها، بيد أن التفاهم الضمني كان قائما بيننا، فهي تطلعني على برامج نزهاتها، وتسألني كل يوم بمودة هل سأحضر في اليوم التالي، وإذا قالت نكتة أو علقت بدعابة نظرت نحوي كأنما يهمها أن تعرف رأيي فيما تقول، وإذا رأتني واجما تلطفت معي، وحينما تغضب أو تتغضب ترى من حقي أن أسألها عن سر كدرها، وحين أخطئ تظل متمنعة كي تطيل توسلاتي قبل أن تصفح عني، فكانت هذه الخلافات الصغيرة هي وسيلتنا الخاصة في التعبير عن حبنا، ولهذا كنا نستمر بها، أما في تلك الليلة فكانت باردة كالثلج، ولهذا توقعت أن تحدث كارثة، ولما انتهى التمثيل قالت لي:

- ستصحبني إلى البيت

وكان الجو قد تغير فجأة ونحن في المسرح، فلما خرجنا وجدنا الثلج يتساقط مختلطا بالمطر، ولم تستطع عربة تيودورا أن تصل إلى باب المسرح، ولما رأى حاجب المسرح سيدة أنيقة مضطرة لعبور الشارع، فتح مظلته فوق رأسينا، ولما ركبنا العربة وقف ينتظر أجر خدمته، ولم يكن معي سنتيم واحد.

وأؤكد لك أنني كنت مستعدا أن أنزل عن عشر سنوات من عمري في نظير سنتيمين أعطيهما للرجل، فكل ما يصنع الرجل منا ويسند كبرياءه رأيته يتحطم في لمح البصر بذلك العذاب الجهنمي.

وخرجت عبارة الاعتذار من فمي جافة غليظة، ثم رأيت الحوذي يدفع الحاجب ويلهب ظهور الخيل فمرقت كالسهام.

وبدت تيودورا طول الطريق ساهمة تتصنع الشرود ولا ترد على أسئلتي إلا بمقاطع متسره، فلزمت الصمت الذي ثقل على صدري وكاد يقتلني، ولما وصلنا إلى قصرها جلسنا أمام المدفأة وحرك الخادم نارها وأذكاها ثم خرج، وعندئذ التفتت الكونتس نحوي وقالت لي في شيء من الجد:

- منذ عودتي إلى فرنسا وثروتي تجذب بعض الشبان، وقد تلقيت من بعضهم اعترافات بالحب كانت حرية أن ترضي كبريائي، والتقيت برجال كان تعلقهم بي صادقا عميقا بحيث كانوا خليقين أن يتزوجوني حتى ولو لم يجدوا في إلا تلك الفتاة الفقيرة التي كنتها قبل زواجي، وأعلم أيضا يا ميسو دي فالنتنان أن ثروات طائلة وألقابا جديدة وضعت تحت أقدامي، ولكني كنت أمتنع عن مقابلة كل من الهمه سوء طالعه أن يحدثني بحبه، ولو أن مودتك كانت هينة علي لما أنذرتك هذا الإنذار الذي تدفعني إليه الصداقة أكثر مما يدفعني إليه الكبرياء.

وكانت تتحدث بهدوء أعصاب موثق العقود حين يشرح لزبائنه بنود عقد أو إجراءات قضية، فلم يكن في صوتها الواضح ما ينم عن أقل عاطفة أو انفعال، إلا أن ملامح وجهها أوحت إلى أن برودها تمويه دبلوماسي، فلا شك أنها أعدت هذه العبارات من قبل مع البرنامج الكامل لهذا المنذر، ولكنها لم تكن تعلم أنها تدوس بقدميها آمال حياتي وتحطم مستقبلي بجهالة قاسية، كجهالة الطفل حين يخطر له أن يمزق في

براءة وعدم اكتراث جناحي فراشة ملونة وقعت في يده.

وسمعتها كأنما من خلال ضباب كثيف تستطرد قائلة:

- ستعرف فيما بعد مدى وفائي لأصدقائي وتعلقي بهم، فأنا لا أضن بحياتي عليهم ولكنك تحتقرني ولا شك لو أنني استسلمت لحبهم من غير أن أشاركهم فيه، وأكتفي بهذا القدر، فإنك الرجل الوحيد الذي صارحته إلى هذا الحد.

وخانتني الكلمات في أول الأمر، لأن الإعصار الذي ثار في وجداني كان عاتيا لا يسمح لي بالكلام، ولكن سرعان ما طويت عواطفي داخل صدري وابتسمت:

- إني والله حائر، فإن قلت لك أني أحبك نفيتني من حياتك أو من مجلسك، وإن اتهمت نفسي بعد الاكتراث لك استوجبت على نفسي عقابك، فأرجو يا سيدتي أن تسمحي لي بميزة الصمت، ولكني أشكرك على شيء واحد، فمخاطبتك إياي على هذا النحو الأخوي دليل على أنك تخشين أن تفقديني، وهذا في حد ذاته كاف لإرضاء غروري، ولكن لندع الشخصيات جانبا ولنتحدث في الموضوع علميا

علميا؟ من أي وجه؟

أنت ظاهرة فذة بين بنات جنسك، فهل أنت من الطراز الذي يعشق نفسه عشقا لا تترك أنانيته مجالا لإمكان الاستسلام لرجل والخضوع لسيطرته العرفية التي تثير نفورك؟ وهل كان لتجربتك الأولى في الحب أثر سيء صرف نفسك عنه؟ أم أن اهتمامك برشاقة قدرك ورهافة خصرك

تملؤك إشفاقا من الخسائر التي تسببها الأمومة؟ أليست هذه الأسباب مجتمعة أو متفرقة خير تفسير لعزوفك عن الحب وفزعك من أن تكوني معشوقة؟ ... وأرجو ألا تغضبي، فإني أناقش بروح العالم بعيدا عن كل عاطفة شخصية، وأتساءل هل أقدمت الطبيعة التي سمحت بولادة عميان بالفطرة، أن تولد أيضا نساء عمياوات بكماوات من حيث الحب؟ لعمري إنك موضوع ثمين للمشاهدة العملية والمرض النفسي! إنك لا تعرفين قيمتك على وجهها الصحيح، بل ربما كنت على حق! فمن هو الرجل الذي يستحقك؟

تتخذها كما تتخذ الأزياء لتقابل بها جميع الناس من أصدقاء وغرباء، ثم قالت:

– ألست طيبة القلب جدا حتى أسمح بتشريحي على هذا النحو؟ إن سواي كانت حريه أن تعاقبك بإغلاق بابها في وجهك ...

– في استطاعتك أن تصنعي بي ذلك من غير إبداء الأسباب!

وأصدقك أنني كنت حريا أن أقتلها على الفور لو أنها حققت ذلك الوعيد، بيد أنها صاحت بي باسمة:

– إنك لمجنون! ...

– ألم تفكري من قبل فيما يمكن أن يفضي إليه حب جامح؟ إن الرجل الذي يستبد به اليأس حري أن يقتل حبيبته!

فأجابتني بفتور شديد قائلة:

– خير للمرأة أن تموت من أن تعيش شقية، ومثل هذا الرجل المندفع خليق يوما أن يهجر امرأته ويغادرها معدمة بعد أن يأتي على ثروتها.

وأذهلني منها ذلك الحساب المادي. فتبينت بوضوح الهوة الكبيرة بين هذه المرأة وبيني، وعلمت أننا لا يمكن أن نتفاهم فقلت ببرود:

– وداعا ...

فأجابتني وهي تهز رأسها بإيماءة ودية:

– إلى الغد!

فحملقت فيها برهة كالمسحور بابتسامتها الجامدة كأنها ابتسامة تمثال. فيها شيء من الحب، ولكنه بارد كالثلج، وسرت إلى حجرتي الباردة الحقيرة وأنا أتعذب ليقيني أنني سأظل مقيما على حب هذه المرأة التي لا قلب لها، وتذكرت أنني لم آكل شيئا طول النهار، أنه ليس معي سنتيم واحد، وثالثة الأثافي أن المطر أفسد قبعتي فكيف يمكن أن أظهر معها أو أدخل صالونها بقبعة غير لائقة؟

ولكن المخلوقة الأنانية تيودورا لم يكن يخطر ببالها مقدار فاقتي ولا التضحيات الجسيمة بالقوت الضروري مدى الأشهر الثلاثة الأخيرة كي أظفر بقربها، فكم من مرة ضحيت بثمن الخبز أسبوعا في سبيل التمكن من رؤيتها لحظة واحدة، وكم من مرة كنت أجري من أول باريس إلى آخرها حتى لا يفاجئني المطر فيفسد ثيابي وليس معي أجر عربة أركبها.

ولست نادما على كل ما فعلت وضحيت، فحبي لها كان من العظمة بحيث يزيد تلذذي بمقدار ضخامة التضحية التي ابذلها على مذبحة. وكيف لا أذكر نعمة حبها وهي التي جعل حبها لأتفه تفاصيل حياتي ورونقا؟ إنها نفخت روحا جديدة في جميع آفاق حياتي حتى أتفه الأمور، كنت من قبل أرتدي ثيابي حيثما أتفق. أما الآن فأتزين وأتأنق وأنا أرى لكل شيء في ثيابي وشعري قيمة كبرى لأن عينيها ستقمعان عليه. بل صارت ثيابي ذات حرمه. بحيث كنت أفضل ألف مرة أن تخرق الجراح جلدي على أن يتمزق ثوبي الوحيد .

عصفت برأسي هذه الخواطر جميعا إلى أن بلغت باب فندقي وأنا أشقى من تحمل الأرض على ظهرها.

نور جديد

كان باب فندقي مواربا. ولمحت ضوء يسقط منه على الشارع ثم سمعت بولين وأمها تتحدثان وهما في انتظاري، ثم سمعت اسمي في الحديث فأصغيت، وإذا بولين تقول:

- رفاييل أحسن بكثير من الطالب الذي في رقم ٧! فشعره الأشقر بديع اللون جدا! ألا تجدين في صوته شيئا ما يحرك قلبك ومع أنه يبدو متكبرا قليلا، فهو طيب القلب جدا أنه حقيقة من أحسن ما يكون! وأنا متأكدة أن جميع النساء مجنونات به ...

- نك تتحدثين عنه كما لو كنت تحبينه

- إني أحبه كأخ. ولأكون جاحدة للجميل أن لم أشعر بالمودة له! أليس هو الذي علمني الموسيقى، والرسم، والنحو، وكل ما أعرفه الآن أنك يا أماه لا تلقين بالا لتقدمي، مع أني في الحقيقة أصبحت متعلمة جدا بحيث أستطيع في مدى فترة وجيزة أن أصل إلى المستوى الذي أعطي فيه دروسا، وعندئذ سيكون في استطاعتنا أن نستأجر خادمة ...

فتراجعت بعد سماع هذه الكلمات قليلا، ثم أحدثت بعض الضجة، ودخلت البهو لآخذ المصباح، الذي نهضت بولين لتشعله. وكانت كلمات هذه الطفلة قد ألقت بلسما على آلامي، فهذا الإطراء الساذج لشخصي رد إلى شيئا من الشجاعة. في وقت كنت فيه محتاجا إلى الإيمان بنفسي

بكلماتها آمالي وانعكس ذلك على كل شيء أراه.

وكانت الأم جالسة عند ركن المدفأة التي أوشكت أن تخمد نيرانها، تحيك جوارب من الصوف، وعلى شفتيها ابتسامة تنضح بالطيبة.

أما بولين فكانت تلون قطعا من القماش، والفرش والألوان على مائدة صغيرة بالقرب منها، فلما نهضت كي تشعل مصباحي سقط الضوء كله على وجهها الأبيض، وكان ينبغي أن تستغرقني عاطفة عاتية حتى تعمي عيني، فلا أعجب بهاتين اليدين الشفافتين الورديتين، وبرأسها النموذجي التقاطيع، وسيماها العذرية الناضرة!

وأضفى الليل والسكون سحرهما على تلك السهرة العامة وذلك الهدوء البيتي، فذلك العمل المتصل في جلد وابتهاج يشهد بإذعان ديني حافل بالعواطف السامية فها هنا انسجام لا يوصف بين الأشياء والأشخاص ...

عند تيودورا وجدت الترف الجاف الذي يوقظ في نفسي الأفكار السيئة، أما هذا الشقاء المتواضع وتلك الفطرة الطيبة فتنعش نفسي وتستريح لها روحي، وعساي أكون قد استشعرت المذلة بين يدي ذلك الترف الفاخر ... أما بين هاتين المرأتين وفي تلك القاعة الحائلة اللون التي تبدو فيها الحياة البسيطة لائذة بالدفء في حنايا القلب، فعساي أكون قد رضيت عن نفسي واستشعرت الاطمئنان ونخوة الحماية الطبيعية لدى الرجل إزاء النساء الضعيفات، فأنا لدى تيودورا ضئيل حاقد وطامع حاسد، أما هنا فكرامة وطمأنينة وسلام.

ولما اقتربت من بولين رمقتني بنظرة أشبه بنظرات الأمومة، ثم صاحت ويداها ترتعدان، ووضعت المصباح من يدها بشدة.

- يا إلهي! كم أنت شاحب اللون! ومبتل الثياب أيضا! أمي ستقوم بتجفيفك يا مسيو رفاييل، وأعهدك تحب اللبن، وعندنا الليلة شيء من القشدة، ألا تذوقها؟

ثم قفزت كأنها الهرة الصغيرة نحو وعاء من الخزف ملآن باللبن وقدمته إلي بحرارة ورقة متناهية، ولما رأت ترددي قالت بصوت متغير:

- أتردني خائبة الرجاء؟

فرق قلبي لأني أشفقت على كرامة هذه الفتاة التي يؤلمها فقرها وتظن بي الترفع، وكنت أعلم أن تلك القشدة ربما كانت غذاء غدها، ومع ذلك قبلت، وحاولت المسكينة أن تخفي سرورها بيد أنه طفر إلى عينيها، فقلت وأنا أجلس:

- كنت في أشد الحاجة إلى هذا اللبن والقشدة فعلا ...

وعندئذ مرت سحابة قلق على جبينها الوضاح، فاستطردت :

- أتذكرين يا بولين تلك الفقرة من كلام بوسويه التي يمثل لنا فيها الله سبحانه يثيب على كوب ماء بارد لعطشان أكثر مما يثيب على أعظم الانتصارات!

- نعم أذكرها

وأخذ صدرها الناهد يعلو ويهبط تباعا، فقلت لها بصوت مضطرب:

– ولما كنا سنفترق عما قريب، أرجو أن تسمحي لي بالتعبير لك عن امتناني لكل ما قمت به من الرعاية لي أنت ووالدتك.

– لندع هذا الحساب جانبا ..

وضحكت ضحكة تخفي بها انفعالا زادني ألما، فاستطردت كأني لم أسمع ردها:

– إن هذا البيانو الذي في حجرتي كان ملكا لوالدتي، وهو من أحسن الآلات التي صنعها أرباب ذلك الفن، فتقبليه من غير تكليف، لأني في الحقيقة لن أستطيع نقله معي في الرحلة التي أزمع الذهاب فيها .

ويبدو أن لهجتي كانت حزينة جدا ففطنت المرأتان إلى قصدي وحملقتا في وجهي باستطلاع ممزوج بالفزع، فالحنان الذي كنت أنشده في الأوساط العالية من المجتمع الخامد القلب فلا أجده، ها هو هنا من غير بهرج، ولكن في بساطة وإخلاص وثبات، لا يعرف الاضطراب والغدر، وقالت الأم:

– أمكث هنا، وأنا واثقة أن زوجي في طريقه الآن من بلاد الهند، فقد قرأت الليلة أنجيل يوحنا كاملا، بينما أمسكت بولين بالتوراة معلقة بين أصبعيها بواسطة مفتاح مربوط فيها، وإذا بالمفتاح يدور يمينا، وهذه بينة قاطعة على أن جودان في صحة طيبة وازدهار مالي وأدبي، وبعد ذلك قرأت بولين الإنجيل مرة أخرى من أجلك ومن أجل الشاب القاطن في رقم ٧، بيد أن المفتاح أبى أن يدور إلا من أجلك، ومعنى هذا أننا نحن وأنت سنكون أغنياء، وجودان سيعود مليونيرا، وقد رأيته في الحلم فوق سفينة ملأنه بالأفاعي، ولحسن الحظ كان

البحر مضطربا. وتأويل الحلم في هذه الحالة أن السفينة ملأنه بالذهب وبالأحجار الكريمة التي اشتهرت بها الهند!

واستطاعت هذه الكلمات الودية الفارغة أن ترد إلى نفسي شيئا من الهدوء، فلهجة هذه المرأة الطيبة ونظرتها كانتا كافيتين لتهدئة أحزاني وإن لم تكفيا لاستئصالها.

أما بولين فكانت أشد تدقيقا من أمها وأكثر قلقا فجعلت تفحصني بلهفة وعيناها الذكيتان تكادان أن تقرأ أسرار حياتي ومستقبلي.

فشكرت بإيماءة من رأسي الأم والأبنة، ثم أسرعت بالفرار خشية أن تلين عزيمتي أمام هذا الحنان، فلما وجدت نفسي بمفردي تحت سقفي المائل رقدت مثقلا بالأحزان.

استعصى علي النوم وراحت مخيلتي ترسم لي آلاف المشروعات التي لا أساس لها وآلاف الحلول التي لا يمكن تنفيذها، وكيف الحل وأنا معدم تماما لا أملك سنتيما. وحيث يختفي المال ويسود الأملاق إياك أن تصدق أن الحياء يمكن أن يكون له وجود، وكذلك العقل ولهذا وجدتني عقيم الفكر مشلول القوة أشبه بفتاة ضعيفة سقطت بين مخالب نمر مفترس.

وكان الفقر على معضلاته يمكن أن يهون لولا المصيبة الأخرى. فالرجل الذي لا هوى لديه ولا مال يظل سيد نفسه، أما المسكين العاشق فلا يملك من أمر نفسه حتى ولا حرية الانتحار، ذلك أن الحب يضفي على أرواحنا شيئا من القدسية، فنحترم في حياتنا حرمة حياة أخرى، ويكون أمل الحب هو المنفذ الواسع الذي يصطلي منه نار العذاب وهو صاغر.

ومع خيوط الفجر استطعت أن أصل إلى فكرة أذهبت عني سورة القلق مؤقتا، فنمت على نية الذهاب في الغد لاطلاع راستنياك على قرار تيودورا الثاني، فهو الوحيد المطلع على حقيقة صلتي بها، وهو الذي قدمني إليها ورسم لي خطة امتلاكها، وهو بحكم درايته بتلك البيئة، ربما كان الإنسان الوحيد القادر على إيجاد حل لهذا الأشكال.

وما إن رآني راستنياك أدخل عنده في ساعة مبكرة جدا حتى قال:

- آه! ها! أعلم ما الذي جاء بك. لابد أن تيودورا طردتك

ولما رأى حملقة دهشتي، قهقه ثم استطرد:

- إن بعض ذوي النفوس الصغيرة حسدوك لسيطرتك على الكونتس فأذاعوا بين الناس نبأ قرب زواجكما. ولم يقصروا في أن ينسبوا إليك تهما كثيرة ..

- عرف السبب إذن!

- يجب أن تستعين بالحذر والتريث، فإن تيودورا ذات نظرة ثاقبة والحصافة صفة طبيعية لدى جميع النساء الشديدات الأنانية. وربما كانت قد اكتشفت سريرتك وأنت بعد في المرحلة الأولى من علاقتك بها، حينما كنت لا ترى فيها إلا مزية الثراء والترف. وتيودورا امرأة بارعة في التمويه بحيث لا تخفي عليها حيل الرجال حين يموهون عواطفهم بين يديها، وأكاد أعتقد الآن أنني غررت بك في طريق عقيم، فهذه المرأة على الرغم من حدة ذكائها ودقة سلوكها وآدابها مخلوقة تحب السيطرة كجميع النساء اللواتي لا يجدن لذة إلا عن طريق

رؤوسهن لا عن طريق قلوبهن، فالهناء عندها قائم بأكمله على الرفاهية والرغد والوجاهة الاجتماعية، فالعواطف عند مثلها دور تتقمصه وتؤديه ليس إلا، فلن تجد على يديها إلا الشقاء، ولن تجعل هذه المرأة من عاشقها إلا عبدا ذليلا لمآربها.

بيج أن راستنياك كان كمن يتحدث إلى أصم، فكنت أقاطعه ولا أجد موضوعا أقاطعه به إلا بيان حالتي المالية، في مرح مصطنع.

فكان جوابه:

– لسوء حظك أن مساء أمس كان من أيام النحس، فأطاح بجميع المبالغ التي كان يمكنني التصرف فيها، ولولا هذا الحظ العاثر لقاسمتك عن طيب خاطر ما يضمه كيسي، ولكن هيا بنا نتغدى في المقصف، فربما الهمنا المحار الجيد الذي يقدمونه هناك فكرة طيبة. فانتظرني حتى أرتدي ثيابي.

ونهض فأرتدى ثيابه وأسرجوا له مركبته الخفيفة التي يقودها بنفسه، ثم ذهبنا وكأننا من أصحاب الملايين إلى مقهى باريس، في جرأة ووقاحة لا يعرفها إلا من جرب الحياة على إيراد رأس مال وهمي .

والحقيقة أنني كنت مذهولا من رشاقة حركاته وثقته بنفسه تلك الثقة التي لا تتزعزع على غير أساس أصلا، وهناك طلب طعاما من أفخر ما يكون قدمه لنا خدم في غاية الأدب واللباقة، وعندما شرعنا نحتسي القهوة جعل راستنياك يوزع إيماءات خافتة برأسه على مجموعات من الشبان تنم وجاهتهم وأناقتهم على ثراء عريض ومكانة مرموقة، ثم أشار إلى رجل

شديد الأناقة يدخل من الباب وقال:

– هذا ضالتك يا صاح!

ثم أشار بيده إلى هذا السيد المنتفش رباط العنق عندما وجده يبحث عن مائدة ملائمة في موضع طيب، فأخذ الرجل يقترب منا، وهمس راستنياك في أذني بسرعة وإيجاز:

– هذا الآدمي يحمل أوسمة لتأليفه كتبا لم يقرأها، فهو كيميائي ومؤرخ وروائي وناشر مخطوطات، وشريك بنصيب الربع أو النصف أو الثلث في عدد لا يحصى من المسرحيات مع أنه أجهل من دابة، أنه ليس بشرا بل مجرد بطاقة أو اسم معروف للجمهور بسمعة العلم والأدب والتأليف.

وعندما مد راستنياك يده يصافح هذا الشخص المجهول ويجلسه إلى مائدة مجاورة لمائدتنا، قال له بمرحه المعهود:

– أهلا أهلا بالصديق الألمعي، الصديق المبجل كيف حال ذكائكم؟

– لا بأس ... مرهق جدا بالعمل.

– في ماذا يا أخي؟

– بين يدي الآن جميع المواد اللازمة لإصدار مذكرات تاريخية غاية في الطرافة، ولست أدري لمن أعهد بها، وهذا يزعجني جدا، إذ يجب أن أعجل وألا فقدت هذه المذكرات موجة الاهتمام بها.

– هل هي مذكرات معاصرة، أم قديمة، أم عن حياة البلاط؟

عن موضوع عقد ماري أنطوانيت.

فقال لي راستنياك ضاحكا:

- بربك، أليست هذه معجزة؟

ثم التفت إلى محدثه وهو يسير إلي:

- المسيو دي فالنتان من أصدقائي، ويسرني أن أقدمه إليك بوصفه أحد مشاهير رجال الأدب في المستقبل القريب، وكانت عمته الكبرى ذات مكانة عالية في البلاط، كانت مركيزة وهو منذ عامين مشغول بكتابة تاريخ للثورة من وجهة النظر الملكية، فهو بحر متلاطم في موضوعك بالذات ..

ثم مال على أذن الرجل وقال له:

- إنه شاب موهوب، ولكنه أبله، ويمكننا أن نستغفله ونجعله يكتب لك مذكراتك وينسبها إلى عمته مقابل ألف فرنك للجزء الواحد.

فهز الرجل كتفه بحركة اهتز بها لها رباط عنقه المنتفش وقال:

- يوافقني هذا السعر ... محاراتي أيها الساقي!

- ولكن اسمع! يجب أن تعطيني مائتي فرنك عمولة. وتنقده أجر جزء على الأقل مقدما، فهذا هو الذي سيغريه بقبول السعر.

- كلا كلا! لا يمكن أن أدفع مقدما أكثر من خمسمائة فرنك كي أضمن حصولي على المخطوط بسرعة.

فمال راستنياك على أذني وأعاد لي هذه المفاوضات التجارية بصوت خفيض، ثم تحول للرجل من غير أن يستشيرني:

– قبلنا يا سيدي! متى تحب أن نتقابل لننتهي من هذه الصفقة؟

– تعاليا للعشاء هنا غدا مساء في السابعة.

والحق أنني كنت مبهوتا من السهولة والاستهتار اللذين باع بهما راستنياك عمتي الموقرة المركيزة دي موتبرون، فقلت له:

– إني أفضل ألف مرة أن أهاجر إلى البرازيل فأعلم الهنود الحمر علم الجبر الذي لا أعرف منه كلمة واحدة، خيرا من أن ألوث اسم أسرتي!

فانفجر راستنياك ضاحكا وهو يدفعني لأركب عربته:

– يا لك من بهيم! خذ أولا الخمسمائة فرنك وأكتب المذكرات. وعندما تنتهي من كتابتها وتقبض مؤخر الأتعاب لك أن ترفض وضع اسم عمتك عليها أيها المغفل، ولك أن تقول أن المركيزة دي مونبرون التي ماتت شهيدة فوق المقصلة تستحق بما كان لها من جمال ومساحيق وجياد وبغال وقبعات وسلال ستة آلاف فرنك على الأقل، فإن لم يقبل الكتبي أن يدفع في عمتك الفاضلة ما تساويه، فيستطيع أن يعثر على كونتيس مفلسة تبصم باسمها على المذكرات.

– رباه! لماذا خرجت من عزلتي الفقيرة الشريفة؟ إن العالم قذر.

– هذا شعر جميل، ولكن صفقات الحياة موضوع آخر أيها الطفل.

– سامحني يا صديقي فإن الخمسمائة فرنك ثروة تنقذني من اليأس

والموت في حالتي الراهنة.

- بل أنت أغنى من هذا أيها الأحمق. فالمائتي فرنك عمولتي ستكون لك وحدك. والآن هيا بنا إلى غابة بولونيا في عربتي هذه، كي نرى الكونتس، وحتى أريك أيضا الأرملة الصغيرة الجميلة التي سأتزوجها. وهي مخلوقة فاتنة، الزاسية بدينة بعض الشيء، تطالع كانت وشيلر وجان بول وكتبا في الكيمياء، ولديها جنون اسمه "ما رأيك" حتى في الكيمياء والفلسفة، ولهذا يجب أن أتظاهر دائما بفهم هذه الخزعبلات الألمانية ومعرفة قصائد ومواويل لا أدري لها رأسا من ذنب، مع أن كل هذه المعلومات الدسمة محرمة على تحريما قاطعا بأمر الأطباء بعد أن ثبت ضررها الوبيل بكبدي الضعيف!

- يا لك من ماجن!

- بل أنا عاجز أمام هذه المرأة، حاولت أن أخلصها من جنونها بالأدب وحماستها بالكيمياء، ولكني عجزت، أنها تبكي بالدمع الهتون حين تقرأ أشعار جيته، وعندئذ يقضي علي واجب الأدب أن أذرف أربع قطرات من الدمع على الأقل، أؤجلها بقدر الإمكان حتى تخف دموعها قليلا وتستطيع أن تنظر إلى خدي، يا لها من مشقة!

- ولماذا كل هذا التمثيل؟

- تقول لماذا؟ بل قل بكم؟ هناك أيها العزيز إيراد سنوي مقداره خمسون ألف جنيه، وهناك قدمان صغيرتان كأقدام الصينيات، ويدان بضتان بيضاوان فيهما من الخواتم ما لا عين رأت ولا خطر على قلب بشر!

وفي الغابة المونقة رأينا الكونتس، باهرة الرواء في مركبة مرصعة لامعة على أتم زينة، وحيتنا بمودة وإقبال، ورشقتني بابتسامة بدت لي حينئذ ملائكية فياضة الحب، فخيل لي أني معشوق منها، وأن شقائي كله قد أصبح في خبر كان، وأن جميع أزماتي المالية والعاطفية قد حلت.

وبتأثير هذا الحبور القلبي بدت لي محبوبة صديقي راستنياك فاتنة حقا، بل إن الشجر والهواء والسماء والطبيعة كلها خيل إلي أنها تعكس ابتسامة تيودورا أو أنها أضاءت بفيض من إشراقها وبهائها

وانفسحت أمامي الآمال. فالخمسمائة فرنك ، بما فيها عمولة راستنياك التي وهبني إياها، ستسمح لي أن أنتقل من الهدوء والدفاع إلى خطة الهجوم والتحدي، سيكون في وسعي أن أنافس في الرشاقة والأناقة جميع أولئك الشبان المترفين الذين يحومون حول تيودورا ويتبارون في خطب ودها.

وما إن عدت إلى حجرتي حتى أغلقت على نفسي الباب ولبثت ساكنا في الظاهر بالقرب من كوتي الصغيرة، أما في الحقيقة فكنت أودع الوداع الأبدي جميع مناظر الحجرات المجاورة التي عشت فيها ثلاث سنوات، وبدأت بقوة الخيال أعيش في المستقبل الذي يعمره الحب بمسراته وأفراحه.

حقا ليس للنفس البشرية حدود، فما أعنف العواصف التي يمكن أن تهدر بين أربعة جدران من حجرة صغيرة فوق السطح! وبقوة تلك النفس السحرية يستطيع الخيال أن يحول التبن إلى تبر، ويشيد القصور كما تستطيع الشمس أن تستنبت الزهور من أرض قاحلة سوداء ..

وفي اليوم التالي، قرب الظهر، طرقت بولين بابي برفق وسلمتني – أتدرين ماذا؟ – خطابا من تيودورا نفسها! تدعوني فيه الكونتس أن أحضر لآخذها إلى حديقة اللوكسمبورج، ومن هناك نذهب معا إلى المتحف وحديقة الحيوان، وبعد أن قرأت هذه الرسالة سكت متحيرا فقالت لي:

– إن خادمها ينتظر الرد.

فكتبت على عجل كلمة شكر حملتها بولين، ثم ارتديت ثيابي وأتممت زينتي وأنا في قمة السرور، وإذا برعدة ثلجية تتملكني عندما طرأ علي السؤال التالي:

– هل ستكون تيودورا في عربتها أو سائرة على قدميها؟ وهل ستمطر السماء أو سيكون الجو جميلا؟ .. وهل يمكن التكهن بما يجول في خاطر النساء؟ ربما لم تحمل حقيبتها. ثم خطر لها أن تنفح أحد الخدم أو الحجاب بمبلغ ما ...

وكنت لا أملك سنتيما، ولن أحصل على شيء من النقود قبل المساء في الساعة السابعة، وفي لحظة واحدة جعلت تيودورا في ذهني آلاف الخواطر العنيفة الأليمة، وتطلعت إلى السماء من كوة حجرتي فوجدت الجو لا يوثق به، فقررت في حالة مسيرها على قدميها وسقوط المطر أن أستأجر عربة طوال اليوم احتفظ بها إلى الساعة السابعة وانقد الحوذي أجره بعد أن أقبض مقدم الصفقة من "فينو". ثم ارتعدت فرائضي حين خطر لي فينو ربما لم يحضر في الموعد!

ولم أشأ أن استرسل مع هذه المنغصات التي تفسد على ذروة نشواتي، وعلى الرغم من يقيني من عدم وجود نقود في أي مكان بحجرتي، رحت أقوم بأعمال كشفية في الأدراج والحقائب وبين الأوراق، بل بلغ بي الهوس أن دسست يدي داخل أحذيتي القديمة تعلقا برجاء وهمي.

وفتحت درج مكتبي للمرة السابعة بحدة جنونية، وإذا بي المح قطعة من ذات الفرنكين لامعة، رشيقة، متأنقة، واقفة على حرفها المنقوش كما تختفي غانية متدلل من حبيبها وراء مصراع الباب، وأطبقت يدي عليها وأنا أتأملها بهيام مقرا بفضلها العميق ونسبها العريق! وغفرت لها أمام حلاوة المفاجأة ما إذا قتنيه من عذاب الهجر والصد والروغان حتى كادت توردني موارد الهلاك! ثم رفعتها إلى فمي وقبلتها بتدله قبلة مدوية سمعت لها في الحجرة الساكنة صدى!

والتفت بحركة لا إرادية فجأة لأرى بولين واقفة بالباب وقد شحب لونها، فغمغمت كأنما تشرح لي سر وقوفها:

- ظننت أنك أصبت بسوء، إن والدتي دفعت إلى الخادم الذي حمل الرسالة هبة، بالنيابة عنك .. فلا تشغل نفسك به.

ثم ولت هاربة في طفولة وهرولة، يا للطفلة المسكينة!

وبنزوة من نزوات النساء التي لا تجد لها تعليلا، أصرت تيودورا على الذهاب إلى حديقة الحيوان سيرا على قدميها، فلما قلت لها:

- ولكن السماء ستمطر حتما ..

حلا لها أت تعارضني. وشاءت المصادفة أن يظل الجو صافيا طول المدة التي استغرقناها في اختراق حدائق اللوكسمبورج. وما إن خرجنا حتى كانت سحابة ثقيلة ظل منظرها ينغصني نصف ساعة قد شرعت تسقط نقطا غادرة من الماء، فركبنا أول عربة أجرة صادفتنا، وما إن خطونا بضع خطوات فيها حتى كانت تلك السحابة قد أفرغت ما في جعبتها وعادت السماء إلى صفائها.

ووصلنا إلى المتحف فأردت أن أصرف العربة وأعطيها أجرها فرنكا، وإذا تيودورا ترجوني أن أستبقيها في انتظارنا، أي عذاب!

ورحت أتمشى معها في المتحف، تحدثني وأرد عليها وأنا أعاني ما يشبه المغص وأجاهد حتى لا يظهر على سحنتي ويشتت أفكاري، فكنت أشعر كأنما من وراء غمام كثيف بضغط ذراعها على ذراعي بين الحين والحين، و يا له من نحس يحرمني من التمتع بتلك اللمسات التي قضيت أسابيع أحلم بها، كانت نزهة كالكابوس الذي تختلط فيه اللذات بالمصاعب وألوان العذاب، ومع هذا استطعت أن أفطن إلى السر الكامن وراء حركاتها، كانت حركات يبدو عليها الاصطناع على الرغم من براعتها في التمثيل، وتكلفها الرقة في الخطوة واللمسة والوقفة، لم يكن هناك بيننا رباط يوحد بين إرادتينا ولا بين خطوتينا، واعذرني أن عجزت عن البيان في هذا الموضع، لأنه لم توجد بعد في ألفاظنا اللغوية تلك القدرة على تصوير التباين المادي بين مخلوقين بشريين، لأننا لم نألف بعد استنباط الأفكار والمشاعر من الحركات الجسيمة، وإنما يكون إحساسنا بذلك راجعا إلى الفطنة القلبية التي لا يمكن التعبير عنها.

"ولبثت متحيرا طول الوقت ماذا وراء هذا التلطف المتكلف المفاجئ، إلى أن قالت لي وهي ترمقني مصطنعة الحياء:

- تستطيع أن تؤدي لي خدمة جليلة ...

فتصنعت الإقبال واللهفة وأنا أضمر لها الاحتقار والبغضاء لتلك الوصولية، فاستطردت بصوت تلعب به أفانين الدلال والمداعبة والتمسح:

- إن الدوق دي نافارن من أقربائك، وحمايته ستكون نافعة لي جدا حين يتوسط لمصلحتي لدى شخصية عليا في البلاد الروسية وهذه الشخصية العليا لابد من تدخلها كي أصل إلى حقي العادل في قضية تتعلق بها ثروتي ومكانتي الاجتماعية والاعتراف بزواجي من لدن قيصر الروسية، أليس الدوق دي نافاران من أبناء عمومتك؟ إن خطابا منه يحسم كل شيء

- إني رهين إشارتك فمري بما تشائين

- إذن تعال نتعش معا الليلة وسأكون وحدي، وهناك سأحدثه بكل شيء كما أعترف بين يدي الكاهن، كم أنت لطيف!

إن هذه المرأة الحذرة المتحفظة الكتوم التي لم يسمعها أحد يوما تتحدث عن شئونها الخاصة ومصالحها، تتخذني الليلة لها مشيرا! ولمحت في تلك اللحظة نشوة نظراتي، فلم تتمنع على إعجابي.هي إذن تعشقني! ما أيسر عقول المحبين!

وصلنا إلى قصرها، ولحسن الحظ أن الفرنكات كانا كافيين أجرا

للحوذي، وهناك أمضيت بقية المهار معها على انفراد، وكانت هذه أول مرة أتمكن من رؤياها على هذا النحو، ففي جميع المرات السابقة كان الناس، وكانت تقاليد المجتمع، ومواصفاته الباردة المهذبة تفصل بيننا، أما الآن فأنا في خلوة معها كأنني كنت أعيش دائما تحت سقفها.

وفي خلال العشاء أغدقت علي عنايتها واهتمامها بآلاف من الأشياء الهينة التي تكفي للعب بألباب شاب عاشق، فتساوى في نظره الدنيا وما فيها، مع أنها تفاهات ليست لها قيمة في نظر الخالي البال.

ولسوء طالعي تذكرت فجأة موعدي الهام الذي أتم فيه الصفقة الخطيرة، فلما حاولت الانصراف لأدرك ذلك الموعد، وتناولت قبعتي، صاحت بجزع:

– أوه! أتمضي هكذا سريعا؟

برح الخفاء! إنها تحبني ما في ذلك شك! أو هذا على الأقل ما اعتقدت وأنا أسمعها تقول هاتين الكلمتين بصوتها الرخيم المتكسر من العتاب والدلال والوجد، وفي سبيل إطالة أمد تلك النشوة النادرة كنت مستعدا أن أنزل عن سنتين من عمري مقابل كل ساعة أقضيها في هذا النعيم المقيم! بل أني أحسست أن هنائي كان ينمو ويزداد بمقدار المال الثمين الذي أضعته!

ودقت الساعة منتصف الليل عندما سمحت لي أخيرا بالانصراف .. وعندئذ بدأت مرحلة الندم والتحسر، وركبتني الوساوس فتوهمت أنني أضعت إلى الأبد صفقة المذكرات التي كانت الخيط الوحيد الذي يربطني بالحياة.

وبكرت في الصباح إلى بيت راستينياك. وذهبنا معا إلى بيت فينمو وكان قد استيقظ لتوه. وبعد توقيع العقد على عجل دفع إلى يدي خمسمائة فرنك ذهبا ثم تناولنا الغذاء نحن الثلاثة على حسابه.

وبعد أن اشتريت قبعة وسترة جديدة، ووفيت ديوني، بقى معي زهاء مائتي فرنك، كانت تكفيني هموم المعاش مع التدبر مدة لا بأس بها.

ليل العاشق

كان هذا اليوم هو خاتمة أيامي الطويلة في الاعتكاف والدروس مدى ثلاثة أعوام، وأصبحت مثابرا على الذهاب إلى قصر تيودورا، حيث أجتهد في التفوق بمظاهري على أولئك الرقعاء من الشبان الفارغين المتبطلين، وخبل إلى أنني نجوت إلى الأبد من الفاقة، فأكسبني هذا الظن تحررا فكريا وحضور بديهة ساعداني على اكتساح المنافسين وبزغت لي شهرة في الغواية وقوة الشخصية.

ولكن كنت غاية في التدله الأبله أمام تيودورا كلما اختليت بها، فلا أعرف ماذا أقول لها؟ وإذا تكلمت جحدت الحب وبالغت في إنكاره، وفي الوقت نفسه اجتهدت أن أجعل نفسي عنصرا لا غنى عنه في حياتها وسعادتها وغرورها فوجودي يوميا بقربها جعلني منها بمثابة العبد والألعوبة السهلة في متناول يدها على الدوام.

وعندما أخرج من عندها أحبس نفسي في حجرتي لأعمل في المذكرات معظم الليل، بحيث لا أنام إلا ساعتين أو ثلاث ساعات من الصباح، وسرعان ما وجدت نفسي خالي الوفاض من المال.

فانتقلت إلى طور جديد يعرفه كل من جرب المظهر الأنيق مع الإفلاس، والحب مع الحرمان، والفاقة التي تموه على الناس لمآزقي المالية بعنف آلامي الأولى، لأني كنت قد ألفت تلك الحياة الجديدة وجربت أن

الحلول موجودة وسنجدها في أوانها المعلوم.

وأما من جهة الطعام فكثيرا ما كانت وجبات العشاء الفخم على مائدة الكونتس تكفي لإقامة أودي مدى يومين، أما كل وقتي وجهودي وقدرتي على الملاحظة فجندتها لاكتشاف طبيعة تيودورا النفسية

وعلى هذه الوتيرة أثبتت تجربتي صدق مخاوفي وسوء ظني، فما من مرة لمحت في عينيها الجميلتين دموعا، بل أن أشد مناظر المسرح تأثيرا في النفس كانت تتركها فاترة، بل – ما هو أنكي – ضاحكة!

كانت تدخر كل عواطفها ورقتها لنفسها، أما آلام الآخرين أو سعادتهم فلا تحس بها ولا تحركها. ولكنها في الوقت نفسه تحسن تمثيل الرقة والاهتمام والحنان حينما تريد، ولهذا نجحت في تغفلي وإساءة استغلالي.

نجحت هذه المرأة في دفعي إلى تضحيتي بالشيء الوحيد الذي حافظت عليه، وهو كبريائي، فأقدمت سعيدا على إذلال نفسي بطرق باب قريبي الدوق دي نافاران، وهو رجل أناني كل وجهه يحمر خجلا من فاقتي، فما إن استقبلني في قصره الباذخ وفي نظراته الحيرة والخوف مما وراء زيارتي، حتى راح يتحدث إلى عن ضخامة خسائره في الفترة الأخيرة، فأسرعت أسري عنه بتوضيح هدفي، فإذا بسلوكه ينقلب من البرود الثلجي إلى الحرارة والإقبال، حتى امتلأت نفسي بالتقزز منه.

وبطبيعة الحال لبى الدعوة التي حملتها إليه لزيارة الكونتس، واستطاع بمجرد هذه الزيارة أن يحطمني عندها، لأن تيودورا وجدت له سحرا كان مجهولا من جميع الناس، فانصرفت إلى استمالته وإغوائه، وبحثت معه من

غير واسطتي قضيتها الغامضة التي لم أعرف عن حقيقتها حرفا، فإني لم أكن في نظرها إلا وسيلة ، ولهذا بلغ من إهمالها أنها لم تكن تشعر بوجودي تقريبا حين يكون قريبي الدوق معها، وفي ذات مساء امتهنتني أمام الدوق بإشارة من تلك الإشارات، ونظرة من تلك النظرات، التي لا تستطيع الكلمات أن تصورها، فخرجت باكيا وأنا أرتب في ذهني ألف مشروع للانتقام، وأدبر مكائد فظيعة ...

فكثيرا ما كنت أصحبها إلى مسرح البوفون، وهناك، إذ أنفرد بها في المقصورة على خير ما يشتهي هواي الصامت أشبع عيني من التطلع إليها وأنا أشبع أذني وروحي بالإصغاء للموسيقى، فتنتشي روحي بتلك اللذة المزدوجة، لذة الحل، ولذة العثور على حركات قلبي تؤديها العبارات الموسيقية على خير وجه، فإذا بي اكتشفت أن عاطفتي القوية كانت في الهواء، وعلى المسرح، سائدة في كل موضع وفي كل أذن وفي كل قلب، إلا لدى معشوقتي!

كانت لا تصغي للموسيقى، فالصفحات الخالدة التي أبدعها روسين وشيماروزا وزنجاريلي لا تثير لديها أي إحساس ولا تترجم عن أي معنى من معاني وجدانها، لأن روحها كانت قفرا قاحلة!

وربما تساءلت لماذا تذهب إلى المسرح وإلى الأوبرا؟ كانت تذهب لتبرز نفسها هناك مشهدا باهرا في دنيا المشاهد الباهرة، ودورا بين الأدوار المشهورة.فمنظارها المكبر لا يكف عن التجوال من مقصورة إلى مقصورة، وهي مشغولة لهفانة على الرغم من هدوئها الظاهري، فهي أمة ذليلة

للموضوعات. ومظهرها وقبعتها ومقصورتها جيادها وعربتها وشخصها هي كل شيء بالنسبة لها.

وفي الدنيا أناس كثيرون تلتقي بهم فتجد لهم مظهرا فخما باهرا، ولكنك تلمس لهم قلوبا من أرق ما يكون تحت مظهر أجسادهم الفولاذية، أما هي فكانت تخفي قلبا من النحاس تحت مظهر هيكلها الدقيق الرقيق ...ومع هذا كنت مقيما على حبها لا أستطيع عنه براحا!

كان الأمل يداعبني أن أقدر يوما على صهر الثلج بحرارة حبي الشاعري، كنت مؤمنا أني أن استطعت أن أفتح قلبها مرة واحدة للعواطف النسوية الرقيقة وأعرفها كنوز الإحساس الصادق والولاء المخلص، لاستحالت من بشر إلى ملك كريم.

كان خطئي أنني أحببتها حب عاشق وحب فنان. ولهذا لم أنلها، في حين ينبغي ألا أحبها إطلاقا كي أنالها، فالذئب الذي لا قلب له ولا يضمر حبا وإنما هو طالب مغنم اسمه اللذة، يرسم له الخطط في هدوء وعدم اكتراث وهو الذي يستطيع أن ينتصر على المخلوقات من هذا الطراز ويحظى بهن، لهوانهن عليه، ثم يطرحهن تحت أقدامه بعد أن تفرغ منهن لبانته ...

إن هذه المغرورة المتكلفة كانت حرية أن تفهم لغة الغرور والتكلف، فتسقط في حبائل رجل جاف النفس بارد القلب أشعبي الأنانية مثلها.

وبدأت الآلام الممعنة تصل إلى شغاف قلبي عندما أسفرت لي تحت ضغط الألفة عن مدى أنانيتها. وفي ذات مساء وجدت الجرأة على أن

أرسم لها بألوان صارخة شيخوختها المقفرة الخاوية الكئيبة، وكان تعقيبها على تلك الصورة الصادقة لانتقام الطبيعة الفظيع من امرأة خدعتها وتنكرت لها، هو هذه الكلمة البشعة.

ولو! ما دامت ثروتي تبقى لي! فالإنسان يستطيع دائما أن يخلق بالذهب الرنان أي جو من العواطف يحتاج إليه حوله كي يشعر بالاغتباط!

فخرجت من عندها مصعوقا من هذا المنطق المادي، منطق تلك المرأة وذلك المجتمع المخرف، وأخذت ألعن نفسي لأنني عبدت هذين الصنمين الخاويين بكل بلاهة وغفلة.

ومع هذا أيها الصديق ما حل اليوم التالي حتى كنت بين يديها..

وفي ذات ليلة وأنا خارج معها من مسرح البوفون كان المطر ينهمر بشدة، فكلفتني باستدعاء عربة، ولم تفطن إلى نظرة الضيق التي أطلت من عيني المحمرتين، وظلت طول الرحلة أشعر بطعنة سكين مع كل دورة من دورات العربة، ورحت أحفر بقدمي أرض العربة عسى أن أنزع منها لوحا وأسقط على الأرض لأتخلص من ورطتي، ولكن العربة اللعينة كانت متينة الألواح، ولم أجد بدا من ترك تيودورا تدخل وحدها بيتها وعدت أنا بالعربة إلى فندقي لأنقل ساحة المعركة إلى موضع أقل هولا.

وفتحت فمي لأسر لبولين بموقفي، ولكن الكلمات وقفت في حلقي، إلا أنها فهمت من نظراتي كل شيء فوفرت على الكلام قائلة:

– أليست معك نقود صغيرة .. ؟

وأؤكد لك أن موسيقى روسيني بكل رقتها وفطنتها لم تكن شيئا مذكورا أمام سحر هذه الكلمات .. وأسرعت هي إلى الحوذي فنقدته أجره.

وكلفتني تيودورا ذات يوم أن أذهب معها إلى أحد المسارح فلم أجد مخرجا إلا أن أرهن الحلقة الذهبية التي تحيط بصورة أمي، وكان ذلك أهون عندي من مد يدي للسؤال من أحد، وكانت بولين جالسة ترسم، أما أمها فكانت نائمة في فراشها فحسبتها مستغرقة في النعاس، وفكرت أن أكلف بولين بالذهاب إلى مكتب الرهون لتنوب عني في هذه المهمة الشاقة، ثم تعثرت الكلمات في حلقي، ففطنت إلى ذلك ووضعت فرشاة الألوان من يدها وسألتني:

- هل يحزنك شيء؟

- إنك تستطيعين يا بنيتي أن تؤدي لي خدمة كبرى ..

فنظرت إلي وقد طفح البشر من وجهها، حتى لقد ارتعدت مأخوذا، ولما أفضيت لها، بما أعانيه من الضيق وكيف فكرت في رهن إطار صورة والدتي، تناولت يدي بين يديها في عطف وقالت:

- أنا مستعدة للذهاب، ولكن لا لزوم لذلك، ففي هذا الصباح وأنا أنظف حجرتك وجدت خلف البيانو فرنكين لا شك أنهما كانا قد وقعا منك سهوا، وقد وضعتهما في درج مكتبك وسأصعد حالا لآتيك بهما.

وإذا بالأم تبرز رأسها من بين ستائر الفراش وتقول:

- لا تنزعج في استطاعتي أن أقرضك ما تشاء إلى أن تأتيك النقود يا مسيو رفاييل.

فصحت وأنا أشد على يد بولين قائلا:

- آه يا بولين. كم كنت أتمنى أن أكون غنيا!

- ولماذا؟ ...

وكانت يدها ترتعد في يدي، فأحس بنبضها سريعا وهي تقول لي:

- ستتزوج امرأة غنية لتكون غنيا، ولكنها ستنغص حياتك .. رباه! أنها ستقتلك! قلبي يحدثني بهذا .

وأحسست في صرختها هذه شيئا من الاعتقاد بخزعبلات أمها فقلت:

- ما أشد سذاجتك يا بولين!

- بل إني واثقة أن المرأة التي تحبها ستقتلك!

ثم تناولت فرشاتها وغمستها في الألوان بحدة، ولم تنظر نحوي بعدها.

وفي اليوم التالي جاءت بولين إلى حجرتي وقالت لي، ووجهها يحمر بشدة:

- ربما لم يكن معك ما يكفي من النقود، لهذا كلفتني والدتي أن أقدم إليك هذه الثلاثين فرنكا خذها خذها!

ثم وضعتها على المكتب وحاولت أن تفلت فأمسكت بها وقد جفف الإعجاب الدموع التي كانت تجول في عيني، وقلت لها:

- يا بولين. أنت ملك كريم! وكرم شعورك يأسرني أكثر من سخائك! أجل أني كنت أتمنى امرأة غنية أنيقة ذات لقب وجاه، أما الآن فأتمنى أن تكون عندي ملايين ثم التقي بفتاة فقيرة مثلك غنية النفس كي أضع كل شيء تحت قدمها فإن حب الطموح سوف يقتلني ..كم أنت محقة.

فأفلتت من يدي وانطلقت، والبشر ينازع على وجهها حمرة الخجل، تهبط درج السلم كالغزال النافر.

وقد خطر لي خاطر في الأيام التالية. قررت أن أفحص هذه المرأة جسديا عن قرب كما درستها ذهنيا، كي تتم لي بها معرفة كاملة، ولهذا صممت أن أقضي ليلة عندها، ليلة كاملة في مخدع نومها، بغير علمها!

إن المرأة حين تخلو بنفسها في مخدع نومها، تخلع من ثياب المجتمع، قناع التمثيل والرياء، وتبدو على حقيقتها سافرة، وإليك كيف نفذت تلك الفكرة التي كانت تنهش قلبي كوسيلة للانتقام لكرامة عواطفي المهدرة.

إن تيودورا تجمع في قصرها أيام الاستقبال عددا كبيرا جدا من الناس بحيث يستحيل على البواب أن يتحقق من خروج إنسان أو بقائه، ولهذا كنت واثقا من استطاعتي البقاء في القصر من غير أن أثير فضيحة، وانتظرت بفارغ الصبر يوم الاستقبال التالي لدى الكونتس، وحرصت وانا أرتدي ثيابي أن أضع في جيب صداري مدية إنجليزية تقوم مقام الخنجر عند اللزوم، وإذا كشف أمرها لا يمكن أن تعتبر سلاحا يثير الريبة، وفي الوقت نفسه كنت لا أدري إلى أين تطوح بي مغامرتي الجريئة، فأثرت أن أحتاط بالسلاح على نحو ما.

ولما امتلأت الصالونات توجهت إلى حجرة النوم لأدرس الميدان على الطبيعة، فوجدت الستائر الخشبية مقفلة، وهي مصاريع النوافذ التي تنسدل من أعلى إلى أسفل لا من الجوانب، ولما كنت أخشى أن تدخل الوصيفة لتزيح الستائر، قطعت بالمدية حبالها كي تثبت في مكانها ...

"وحول منتصف الليل عدت إلى تلك الحجرة متسللا واختفيت وراء ستارة أحد النوافذ. ولكي لا يظهر حذائي حاولت أن أتسلق فوق حاجز النافذة وتشبثت بمقبضها، ثم جمدت على ذلك الوضع وأنا أدعو الله ألا يكشف العطاس أمري أو السعال أو غير ذلك من المفاجآت. وأخرجت المدية وأحدثت في قماش الستائر ثقوبا لأتمكن من مشاهدة كل شيء خلالها وأنا واقف في مخبئي.

وجعلت أنتظر على مضض انصراف آخر المدعوين الذين كانت أصوات ضحكاتهم تصل إلي ...

وكان بعضهم يدخلون ليأخذوا قبعاتهم التي تركوها بالقرب من مكمني، وكانت القبعة الأخيرة لعاشق مزمن من عشاق تيودورا. ظن نفسه بمفرده، فراح يرمق فراشها ثم زفر زفرة حرى، ثم خرج مطأطئ الرأس ...

وبقى بعد ذلك حول تيودورا خمسة أشخاص من المقربين اقترحت عليهم أن يتناولا الشاي معها، وعندئذ بدأت أسمع أحر تشنيعات باريس وتخرصاتها على جميع الأصدقاء الذين كانوا حاضرين في الاستقبال، بين صليل الفناجين والملاعق، وكان صديقي راستنياك من أبرعهم فكاهة وألاذعهم لسانا، ثم خاض أحد الحاضرين في سيرتي بطريقة خبيثة، إذ جعل

يبالغ في مدحي، فإذا الكونتس تنطلق في السخرية مني وتقليل شأني وفضح غفلتي وآمالي السرية التي لم تغب عن فطنتها. فلما رأت راستنياك يمتعض، أردفت بقولها أن لي فضيلة واحدة هي ولائي لها ...

وأخيرا انصرف الجميع وهي تودعهم باسمة بكل مودة معربة عن امتنانها لظرفهم وتمتعها بمجلسهم، حتى إذا اختفوا من أمامها تمطت وتثاءبت وصاحت:

- أوف! كلهم مملون مضجرون!

ثم جذبت حبل الجرس ودخلت مخدع النوم وهي تدندن بقطعة من الأوبرا الإيطالية، ثم لم يلبث صوتها أن أخد في الارتفاع طبقة بعد طبقة، وهي تزداد مع الغناء حماسة، فتنبسط كنوز صوتها الرخيم وحنجرتها الذهبية شيئا فشيئا، حتى وصلت في النهاية إلى ذروة من الروعة والإعجاز، كان صفاء صوتها شيئا نادرا حقا. وانضباط أوتار صوتها مذهلا للعقل ...

واستبشرت خيرا. فالمطربات المجيدات كلهن تقريبا عاشقات، ومن تعرف كيف تغني هكذا لا بد أنها تعرف ما الحب، وهكذا كان جمال ذلك الصوت لغزا آخر من ألغاز هذه المرأة الغامضة ...

كنت أراها كما أراك الآن وقد سرت فيها النشوة لجمال صوتها، فأوشكت أن تبدو كنشوة الحب وهي تخطر أمام المرآة المثبتة فوق المدفأة كي تختم أغنيتها، فلما سكتت تغيرت سحنتها وتهالكت ملامحها وبدا على وجهها الإعياء.

لقد ختمت الممثلة دورها وطرحت عنها قناعها، ولكن بقي وراء ذلك

الإشراق المصطنع شيء من الجمال المكدود، ورفعت أحد قدميها فوق حاجز المدفأة وخلعت قفازيها وسواريها وعقدا ذهبيا كان يزين جيدها تتدلى منه حلية من الأحجار الكريمة، وطاب لي أن أراها تأتي بتلك الحركات التي تشبه حركات القطة وهي تتزين على فروة أمام النار، ثم جذبت الجرس من جديد فدخلت وصيفتها مسرعة.

وركعت أمامها جوستين – هذا اسم الوصيفة – فخلعت عنها نعليها وجوربيها وملاءتها مستلقية في مقعد مستطيل هزاز، تتمطى وتتثاءب وتهرش رأسها، فوجدت لهذه الحركات الطبيعية جدا سحرا لم أعهده في كل حركاتها الرشيقة المقدرة، ولكن مع هذا لم ألحظ في تلك الحركات الطبيعية جدا إلى عرض ينم عن ألم دفين أو عاطفة مكبوتة ...

ووضعت قدميها العاريتين الصغيرتين في خف من القطيفة المزركشة بريش البجع، ثم حلت أزرار ثوبها وانصرفت جوستين إلى تمشيط شعرها وترجيله وهي تقول:

– يجب أن تتزوجي يا سيدتي وتنجبي أطفالا.

– أطفال؟ ليس باقيا لإتمام تقويضي ألا أن أنجب أطفالا! وأتخذ زوجا؟! من هو هذا الرجل الذي عساي ...؟ كلا! أتزوج؟ إن الزواج حرفة لم أخلق لها!

وشرعت جوستين تحل عنها أربطة ثوبها الخارجي وثيابها الداخلية. فوضعت روحي كلها في عيني وأنا أتفحصها بنهم لحظة تجردها من غلالتها الأخيرة ...

كان لها صدر ناهد كأنه صدر عذراء، وبدا جسمها الأبيض الوردي كتمثال من الفضة في ضوء القمر، لم أجد فيها عيبا واحدا يخدش العين أو يحول بينها وبين الحياة الطبيعية،وجلست أمام النار ساكتة بينما أخذت جوستين تلبسها غلالة النوم.

وأعدت لها بعد ذلك فراشها، فلما رقدت غطتها بحنان، وانصرفت .. وجعلت الكونتس تتقلب في فراشها جملة مرات قلقة، ثم تنهدت وغمغمت بكلمات لم أتبينها، مدت يدها نحو المائدة فتناولت قنينة صغيرة صبت منها خمس نقط داكنة اللون في كوب اللبن. وتجرعته مرة واحدة. وعلى أثر ذلك هتفت:

- رباه!

ولكنها سكتت بعدها فلم تتحرك، حتى خشيت عليها أن يكون قد أصابها مكروه، إلا أن أنفاسها المنتظمة طمأنتني وعرفت أنها استغرقت في النوم ...

وعندئذ غادرت مكمني وقد تصلبت عضلات ظهري وتسللت حتى جلست على طرف فراشها عند قدميها وأنا أنظر إليها بعواطف متضاربة...

كانت فاتنة وهي نائمة، ورأسها تحت ذراعها كما ينام الأطفال. ووجهها الهادئ الجميل فيه عذوبة وبراءة استحوذت على قلبي، وفجأة تنبهت لما صنعته بنفسي من المكروه، فإني لم أقدر مبلغ العذاب الذي سأصطلي به وأنا على هذه الصورة قريب منها غاية القرب، بعيد عنها

غاية البعد، ولكن لم يكن أمامي مناص من معاناة كل المشاق التي فرضتها علي نفسي برعونتي ...

بل إن مشاهدة هذا الوجه الطاهر الهادئ الجميل على هذه الصورة كان حريا أن يضعف عزيمتي ويجعلني أفشل في تخليص قلبي من شراك هواها، وفكرت في وسيلة تكون كالسهم الأخير أحالو بها كسب قلبها وتحريك شعورها، خطر لي أنه لو رويت لها قصة حياتي الحقيقية، وحبي، وتضحياتي، ربما أيقظت فيها شعور الرحمة وانتزعت دمعة من تلك التي لا تبكي أبدا ...

وضعت في هذه الخطة الأخيرة جميع آمالي، إلى أن نبهتني ضجة الشارع إلى قرب انبثاق النهار، وخشيت أن تضعف مقاومتي بسبب تعبي الشديد فأغفو في فراشها، لهذا أسرعت بالفرار إلى الصالون، وهناك وجدت بابا صغيرا يفضي إلى سلم حلزوني، ومن هذا السلم وصلت إلى فناء القصر، ولم أكترث هل يراني أحد من المارة المبكرين أو رجال الشرطة. فقفزت من فوق السور، ولما وطئت قدمي أرض الطريق أسرعت أعدو كالهارب من الشياطين ...

وبعد يومين كان من المقرر أن يحضر مؤلف شاب ليقرأ روايته التمثيلية على الكونتس، فقررت أن أذهب على نية البقاء بعد خروج سائر الناس كي أطلب منها طلبا غير مألوف، كنت أريد أن أرجوها في منحي مساء اليوم التالي لي وحدي، أخلو إليها طول السهرة وتغلق بابها فلا تأذن لأحد...

فلما انصرف الجميع وصرت وحدي بدأ قلبي يخونني، وظهر على الاضطراب لاقتراب الساعة من منتصف الليل وهو الموعد اللائق للانصراف من غير أن أجسر على مصارحتها، فقالت لي:

– ماذا بك؟ إنك متغير اللون ...

– ذلك أني متردد في أن أطلب إليك مكرمة ..

فشجعتني بإيماءة من رأسها، فصارحتها بطلبي، فقالت:

– عن طيب خاطر، ولكن لماذا لا تحدثني الآن بما تريد ونحن وحدنا؟

– ذلك أني أريد أن أخلق حولنا من بداية السهرة الجو الذي أشعر فيه أننا أخوان، ولا تخشي شيئا فأني أعرف نفورك من حديث الحب وأنت تعرفين حرصي على رضاك بحيث لا تصبو نفسي إلى شيء يغضبك، ولا أستطيع أن أتنكر لما غمرتني به من الصداقة والمودة والإغضاء عن الهفوات، فأعلمي أن خلوتنا غدا ستكون جلسة الوداع، وغدا على كل حال ستعرفين كل شيء ...

ثم تركتها وانصرفت قبل أن تقول شيئا ...

وفي شهر مايو الماضي، في نحو الساعة الثامنة مساء ألفيت نفسي مختليا بتيودورا في حجرة زينتها، وقد عقدت العزم على أحد أمرين، أما أن أظفر بمن أحب، وأما أن استبدل بأحضانها أحضان الموت ...

وكانت الكونتس تلك الليلة مرتدية ثوبا من الكشمير الأزرق وقد أضجعت فوق ديوانها الوثير ووضعت قدميها فوق وسادة.ولم أرها يوما من

الأيام في مثل ذلك الجمال المشرق ...

ولما رأت صمتي بادرتني تقول ضاحكة:

- أتدري أنك أثرت فضولي؟

فأجبتها بفتور، وأنا أجلس بقربها، وأتناول يدها فتتركها بين يدي:

- ولن أخيب فضولك، أني أعرف أن لك صوتا ساحرا!

فصرخت، وهي تنتفض دهشة:

- ولكنك لم تسمعني أغني مطلقا.

- أستطيع أن أبرهن لك على العكس وقت اللزوم، فهل ترين شدوك الساحر سر من الأسرار ينبغي ألا يذاع؟ اطمئني فسوف لا أذيعه.

ثم بقينا نحو ساعة نتحدث في ألفة بعد أن غيرت الموضوع، ثم حصلت منها على رخصة بتقبيل يدها، وجاءت هذه القبلة أشد حرارة مما كنت أبغي، فسحبت يدها بشيء من الغضب المصطنع، ولكنها أشعرتني بمخالب القطة تحت نعومة يدها، وساد الصمت بعد ذلك نحو عشر دقائق.

ولئن كنت قد تحسرت على حرماني من هذه المرأة وفشلي في إخضاعها لنداء عاطفتي، ففي تلك الخلوة الصامتة لم أشعر بأية رغبة في جسدها، كنت أريد روحا، كنت أريد حياة، كنت أريد ذلك الهناء المثالي الكامل، والحلم الجميل الذي لا يطول إيماننا الراسخ به كثيرا، وأخيرا قلت لها، وقد شعرت أن ساعة نشواتي الأخيرة قد حانت، وقد أخذت أناملها بين كفي:

- أصغي إلي يا سيدتي، إني كما تعلمين أحبك، وقد صارحتك بذلك ألف مرة، ولكنك آثرت ألا تفهمين، ولم أشأ أن ألجأ إلى مناورات الدجالين والمداهنين، وكم من أوجاع قاسيتها من أجلك، وأنت لا تعلمين، هناك يا سيدتي نوعان من الشقاء، هناك الشقاء الذي يسير ساخرا في الشوارع في الأسمال البالية، ولكن بين هؤلاء النفر من المساكين من يتمتعون بسعادة لا يعرفها أهل اليسار إذا كانوا ممن رزقوا كنز القناعة بالقليل وعدم الاكتراث بالمطامع والزخارف، ثم هناك شقاء المترفين الذي يتعلق بالمظاهر والكبرياء، فالشقاء الأول شقاء الشعب. شقاء العامة. أما الضرب الثاني من الشقاء فهو شقاء الملوك والمحتالين وأهل المواهب، وأنا يا سيدتي لست من العامة ولا من الملوك ولا من المحتالين، ولكن ربما كنت أو لم أكن من ذوي المواهب، إلا أن اسمي على كل حال يحتم على كي أصونه من الدنس أن أقدم على الموت قبل أن أقدم على التسول.

ورأيت في عينيها نظرة الفتور التي تبدو على مثلها حين يتجه الحديث وجهه لا يحمدها أهل طبقتها، فأسرعت في الكلام:

- أتذكرين يا سيدتي ذلك اليوم الذي ذهبت فيه إلى المسرح من دوني، وأنت تظنين أنني سوف لا أذهب وحدي؟

فأشارت برأسها أن نعم ...

- تلك الليلة أنفقت آخر جنيه لكي أذهب واراك هناك، وهل تذكرين نزهتنا معا في حديقة الحيوان؟

– أذكرها ...

– لقد كلفتني عربتك ذلك اليوم كل ثروتي!

ثم قصصت عليها جميع تضحياتي. وصورت لها حياتي لا كما أرويها الآن تحت تأثير نشوة الخمر، بل تحت تأثير نشوة القلب السامية، فجعلت عاطفتي تنساب في كلمات ملتهبة هيهات للفن أن يبعثها من طوايا الذاكرة، وكان صوتي صوت إنسان يتلو صلواته الأخيرة وهو يجود بأنفاسه صريعا في ساحة الوغي، وكل نبرة كأنها تنتزع من حشاشة القلب انتزاعا ...

"وبكت تيودورا ...!

"ولما رأيت دموعها كففت، إن هذه الدموع لم تكن في الواقع إلا ثمرة عاطفة مصطنعة تشتري بدراهم معدودة عند باب أي مسرح، لم أكن بالنسبة لها إلا ممثلا بارعا أصاب النجاح الكامل في أدائه الفني، وقالت لي:

– لو أنني كنت أعلم ...

– حسبك. أني ما زلت أحبك الآن حبا يكفي باعثا عندي على قتلك!

ولما رأيتها تهم بجذب حبل الجرس، انفجرت ضاحكا وقلت:

– لا تستنجدي بأحد. فأني سأتركك تستأنفين حياتك بسلام. ولن أطيع حقدي فيك فأقتلك! لا تخشى من جانبي عنفا، فلو أني كنت أريد العنف لما انتظرت إلى الآن، كانت أمامي الفرصة سانحة، حين قضيت ليلة بأكملها على طرف فراشك .

فصرخت وقد أحمر وجهها:

- سيدي ...

"ولكن بعد حركة الخفر الأولى هذه التي لا بد أن تصدر عن أي امرأة مهما كانت باردة الشعور، رشقتني بنظرة ازدراء وقالت:

- لابد أنك شعرت ببرد شديد!؟

- وهل تعتقدين يا سيدتي أن جمال جسمك هو أثمن شيء في نظري؟ اعلمي أذن أن جمال شكلك ليس في نظري إلا مجرد وعد بروح أجمل بمراحل من جسمك البديع التكوين! واعلمي يا سيدتي أن الرجال الذين لا يرون في المرأة إلا امرأة في استطاعتهم أن يبتاعوا جميع ليالي ألف ليلة بثمن بخس مهما كان غاليا ... أما أنا فأشد من هؤلاء طموحا، كان أملي أن أعيش معك قلبا لقلب لا جسدا لجسد. وكنت أظن أنك لو كنت لرجل غيري لقتلتك.

وقالت تيودورا لرفاييل:

- هل أنا مجرمة إلى هذا الحد لأنني لم أحبك؟

- غير هذا. إنك أن أحببته حقا فسيكون مقدسا في نظري، وسأذود عنه الموت لأن موته يؤلمك! آه يا سيدتي كم أتعذب! إن كان مثل هذا الوعد يكفي لتخفيف آلامك، فأعلم أذن أنني لن أكون لرجل، لأي رجل. وهل تسرينني بهذا الكلام؟ أنك بهذا تهينين المولى عز وجل. تخالفين إرادة الله وتجحدين نعمته عليك، نعمته الكبرى بين جميع النعم، نعمة الجمال! وثقي أنه سينزل بك أشد العقاب، وسيأتي يوم ترقدين فيه على مثل هذا الفراش، لا تطيقين فيه احتمال الضوضاء

ولا النور، تعيشين في ظلام وسكون كأنك في قبر، وتتعذبين بأوجاع لم يسمع بها أحد، فإذا أعياك فهم أسباب هذه الآلام الانتقامية، تذكري جيدا جميع الآلام الفظيعة التي بذرتها في حياة الناس وأنت تسلكين طريقك! إن من يزرعون الحب يحصدون الحب، ومن يبذرون الحقد والكراهية، يحصدون الحقد والكراهية! هذا هو الانتقام والعدل الإلهي الذي يتغلب على عدالة البشر!

فضحكت عن قلب خلي وقالت:

- هل أنا مجرمة إلى هذا الحد لأنني لم أحبك؟ وهل هذا ذنبي؟ كلا إني لا أحبك ذلك إنك رجل. وكفى. إني أشعر بالسعادة في وحدتي هذه. فلماذا أغير نمط حياتي؟ إنها حياة أنانية إن شئت. ولكن لماذا استبدل بها الخضوع لأهواء سيد متحكم؟ إن الزواج رباط مقدس لا نحصل بمقتضاه إلا على الأشجان والمتاعب. ثم إن الأطفال يضجرونني. وتذكر أنني أنذرتك بوجهة نظري من قبل فلماذا لم تقنع بصداقتي؟ كنت أحب أن أعالج آلامك التي سببتها لك بعدم فطنتي إلى قلة مالك ورقة حالك، ذلك أنني أقدر مدى تضحياتك. إلا أن مثلك لا يقتنع بغير الحب ثمنا لإخلاصه وتعلقه. وأنا لا أستطيع أن أحبك .

فقلت له بعذوبة وأنا لا أمسك دموعي:

- إني أشعر بمدى سخافتي، فاصفحني عني، وأن حبي لك من الجسامة بحيث أصغي بتلذذ إلى عباراتك القاسية التي تصبنيها علي، كم أود لو استطعت أن أوقع على حبي لك بكل دمي ..

فازدادت ضحكا وقالت:

- جميع الرجال يرددون على أسماعنا تلك العبارات المحفوظة التي تدور حول استعدادهم لبذل دمهم، ولكن يبدو أنه من العسير جدا أن يموت أحدهم تحت أقدامنا .. لقد بلغت الساعة منتصف الليل، فأسمح لي أن أنام ...

فرمقتها بنظرة تتوهج غضبا، فهذه المرأة ألفت أن تسمع الاعترافات العاطفية الملتهبة، فلم تكترث لدموعي وكلماتي.

- هل تقبلين الزواج من عضو بمجلس الأعيان؟

- ربما. إن كان دوقا ...

"فتناولت قبعتي وحييتها، فقالت وهي تشير بسخرية واضحة:

- اسمح لي يا سيدي أن أصحبك إلى باب جناحي.

فانحنيت لها بمثل سخريتها قائلا:

- سيدتي!

- سيدتي!

- لن أراك بعد الليلة ...

فأجابتني وهي تومئ برأسها في صلف:

- أرجو هذا ...

فأشعلت لهجتها النار في قلبي وقلت لها:

- تريدين أن تكوني دوقة؟ إنك مجنونة بالألقاب والمظاهر الفارغة .

- حسنا يا سيدتي. اتركي لي الفرصة كي أحبك. ومري قلمي لا يتحدث وصوتي لا يتردد إلا في سبيلك وباسمك. كوني محور حياتي ونجمي الهادي، ومصدر إلهامي! ثم لا تقبليني زوجا إلا بعد أن أغدو وزيرا، وعضوا في مجلس الأعيان، ودوقا ... سأفعل المستحيل لأكون كل ما تريدينني أن أكون!

فابتسمت ساخرة وقالت:

- لقد استفدت تماما من دراسة القانون والعمل في مكاتب الموثقين فأني أرى مرافعاتك لا تنقصها الحرارة ...

فصحت بها:

- إنك أنت الماضي. أما أنا فالمستقبل! إني بفقدك لا أفقد إلا امرأة. أما أنت فتفقدين أسما وأسرة. وأن الزمن ليحمل في أحشائه جنين انتقامي. وحين تكمل أيامه سيرميك به قبحا ومرضا وموتا في عزلة ووحشة. أما أنا فسيحمل لي الزمن أكاليل المجد!

فلم تزد على أن غطت فمها بكفها وهي تتثاءب، فرميتها بنظرة حقد أخيرة، وأسرعت بالاختفاء من ناظريها.

اليأس الضاحك

لم يكن هناك مفر من الأقدام على نسيان تيودورا والشفاء من جنوني بها واستئناف عزلتي الدراسية، أو أموت. ولهذا فرضت على نفسي أعمالا شاقة بحجة الإسراع في إتمام مؤلفاتي وقضيت خمسة عشر يوما لا أخرج من حجرتي، وأنفق الليالي في دراسات باهتة اللون، ولكن على الرغم من صدق عزيمتي التي كان باعثها يأسي الشديد، كنت أمضي في عملي بصعوبة وبمحصول قليل، فعرائس الإلهام هجرتني ولم أعد أستطيع طرد شبح تيودورا الساخر الباهر القاسي، وكانت كل فكرة من أفكاري تنطوي في داخلها على فكرة أخرى مريضة، أو على رغبة أو على حسرة ...

وذات مساء دلفت بولين إلى حجرتي، وقالت لي بصوت ضارع:

- إنك تقتل نفسك، يجب أن تخرج وترى أصحابك.
- آه يا بولين! لقد صدقت نبوءتك، وقتلتني تيودورا. كم أرغب في الموت لأن الحياة أصبحت في نظري لا تحتمل ...

فابتسمت بولين، وقالت لي:

- أليس في العالم إلا امرأة واحدة؟ لماذا تجشم نفسك آلاما لا طاقة لك بها في عمرك هذا، والحياة كما تعلم قصيرة وإن طالت؟

فحملقت في وجهها مبهوتا، فتركتني وحدي وتسللت من غير أن

أشعر بانصرافها، بل أني كنت قد سمعت صوتها من غير أن أفقه مراميه ...

وكان علي أن أحمل مخطوط المذكرات إلى ذلك المقاول الأدبي ،لأني كنت خاوي الوفاض، والخمسمائة فرنك التي استحققها كانت تكفي للوفاء بديوني، وفي طريقي مررت براستنياك، الذي وجدني متغير الوجه هزيلا، فسألني:

- من أي مستشفى خرجت يا هذا؟

- إن هذه المرأة تقتلني فأنا من أمرها في حيرة، لا أنا قادر أن أكرهها ولا أن أنساها ...

- خير لك أن تقتلها من أن تقتل نفسك ...

- وهذا أيضا فكرت فيه، ولكن كلما وضعت خطة جريمة أو اغتصاب أو قتل، أو للاثنين معا وجدت نفسي عاجزا عن اقتراف الجريمة واقعيا ...

- إن شأن الكونتس هو شأن كل امرأة لا تقدر على امتلاكها.

- بل أني مجنون. أحس بالجنون يزأر أحيانا في مخي، وتغدو أفكاري كالأشباح ترقص أمامي فلا أستطيع أن أسيطر عليها أو أدركها. وأنا أفضل الموت على مثل هذه الحياة، ولهذا أبحث بعزم أكيد عن خير وسيلة للانتهاء من هذا الصراع، وعقدة العقد أنني لم أعد أهتم بتيودورا الحية، تيودورا التي تسكن حي سان أونوريه، بل بتيودوراي أنا، بتلك التي هنا في رأسي! ما رأيك في الأفيون؟

- صه! إن عذابه لشديد ...
- والخنق؟ أشنق نفسي؟
- خاتمة أوغاد .. !
- ونهر السين؟
- إن شباك الصيادين وهي تقتنص الجثة شيء قذر ..!
- ورصاصة المسدس؟
- بشرط ألا تخطئ الهدف. فإن اضطربت يدك عشت مشوها بقية حياتك ...
- ماذا أصنع الآن؟
- اسمع. لقد فكرت أنا يوما ما في الانتحار مثل جميع الشبان، فمن منا لم يفكر في قتل نفسه مرتين على الأقل قبل سن الثلاثين؟ ومع هذا فقد وجدت أن أفضل طريقة هي طريقة الانتحار الضاحك .
- وما هي؟
- تستهلك حياتك تدريجيا بالانغماس في الملذات. فأما أن تموت أنت أو تموت العاطفة التي دفعتك إلى هاوية اليأس، أو تموتان معا، وربما كنت سيء الحظ فالتقيت بسعادة عمرك بالمصادفة وأنت سارد في تهتكك وخمرك وقمارك وضلالك وقصفك ومجونك.

واستطاعت كلمات راستنياك أن تجرفني. فقد كانت كلماته شديدة

الإغراء، تصبغ اليأس بالضحكات لا بالدموع، وتكسو القنوط بطيلسان الآمال، كان هذا الماجن شاعرا يعرف كيف يستهوي بألوانه قلب شاعر...

ثم تنبهت للواقع فقلت له:

- والمال يا عزيزي؟

- ألست تملك خمسمائة فرنك؟

- بلى. ولكني مدين للترزي ولصاحبة الفندق ...

- وهل أنت أبله إلى هذا الحد؟ أأنت ممن بلغت بهم الحماقة أن يدفعوا حقوق الترزي؟ آه يا رفاييل! إنك بهذه الطريقة لن تصير شيئا مذكورا بل لن تصل حتى إلى كرسي الوزارة!

- لنفرض أني لم أدفع، ماذا نصنع بهذا المبلغ التافه؟

- نقامر به أيها الذكي!

فارتعدت لسماع هذه الكلمة، وفطن إلى ذلك، فقال:

- أراك ممن يرتعدون من المائدة الخضراء؟ من أين يمكن أن تعيش إذن؟ عن سعة؟ وفي بذخ، من غير مال؟

- اسمع، لقد وعدت أبي وهو على فراش الموت ألا أطأ بقدمي بيتا من بيوت القمار، وبصرف النظر عن هذا الوعد المقدس، فأنا أشعر بارتياح لا حد له كلما مررت أمام مكان للمقامرة، فخذ أنت مائتي فرنك وأذهب وحدك فقامر، أما أنا فسأذهب في انتظار عودتك لأرتب بعض شئوني ثم أعود إلى بيتك ...

ولما عدت إلى فندق سان كنتان رحت أجيل طرفي في حجرتي التي عرفت أيام دراستي العلمية الطاهرة الشريفة، التي ربما كانت خيرا لي من تلك الحياة التي اجتذبتني لتبتلعي كالدوامة. وفاجأتني بولين على هذا الحال، فقالت:

- ماذا بك؟

فقمت ببرود وعددت لها النقود التي في ذمتي لوالدتها، وأضفت إليها أجر ستة أشهر، فرمقتني في شيء من الذعر، فقلت:

- سأترككم يا عزيزتي بولين ...

فصرخت قائلة:

- رباه ... هذا ما كنت أتوقعه!

- اسمعي يا طفلتي. إني لم أتنازل عن حقي في الحضور إلى هنا، ولهذا دفعت أجر نصف سنة مقدما لتحتفظوا لي بصومعتي تلك المدة، فإن لم أعد في خلالها فأنت وريثي في كل ما تركت فيها ...

وأشرت إلى مظروف مختوم، ثم قلت:

- إن هذا المخطوط هو نسخة مؤلفي الكبير عن الإرادة، عليك عندئذ أن تسلميها للمكتبة الأهلية، أما كل ما أتركه هنا عدا ذلك فهو ملك خالص لك ...

فرمقتني بنظرات أثقلت فؤادي، والحق أن بولين كانت ماثلة أمامي كأنها صورة ضمير حي، ثم أشارت إلى البيانو وقالت:

– أتعني أنني لن أتلقى بعد اليوم دروسا؟

فلم أحر جوابا ....

– هل ستكتب إلي؟

– بل وداعا يا بولين ...

ثم جذبتها نحوي برفق، وفوق جبينها الوضيء العذري الأبيض كأنه الثلج الطاهر الذي لم يمس الأرض، طبعت قبلة أخ أدركت قبلة الشيخوخة، فولت هاربة، أما مدام جودان فلم أشأ أن أراها بل وضعت مفتاحي في مكانه المألوف وانصرفت، وحينما اجتزت الزقاق ودخلت شارع كلوني سمعت من خلفي وقع أقدام امرأة تجري مسرعة، وكانت بولين:

– لقد طرزت لك كيس نقود بيدي، فهل ترفض قبوله مني؟

وخيل إلي أني لمحت في ضوء مصباح الشارع دمعة تترقرق في هاتين العينين، فتنهدت، واختطفت الكيس من يدها وابتعدت بسرعة، كأني هارب من الطاعون، أو من نفسي!

وجلست برهة طويلة في بيت راستنياك انتظر عودته، إلى أن سمعته يضرب باب الحجرة بقدمه ويدخل مهللا:

– ربحنا! وفي استطاعتنا منذ الآن أن تموت بصورة مشرقة ...

ثم قدم لي قبعته مكتظة بالذهب ووضعها على المائدة وجذبني من يدي وراح يراقصني قافزا حولها، كما يرقص أكلة اللحوم البشرية حول ضحية طيبة من اللحم الأبيض تنتظر السفود والنار، كان يصرخ مثل

المتوحشين ويلكمني بحماسة لكمات أظنها تكفي كي تصرع خرتيتا. ورفع عقيرته بالغناء وهو يصور لي بعباراته وبريق عينيه ألوان اللذات الخيالية التي تحتويها هذه القبعة ...

- ثلاثون ألفا يا غلام. بين ذهب وأوراق نقد. مبلغ طائل يكفي لحياة غيرنا. أما نحن فالله أعلم هل يكفي لقتلنا أم لا؟

وجلسنا نتقاسم التركة قطعة قطعة في كومتين، وهو يصيح وأنا معه:

- أنت. أنا. أنت. أنا. أنت ...

فلما فرغ من القسمة صفق بيديه وصاح:

- لن ننام هذه الليلة. النوم علينا حرام. أحضر الخمر يا غلام!

ثم قذف خادمه العجوز الأمين بجفنه من الذهب وهو يصيح به:

- وهذا نصيبك أيضا، تكفن نفسك به!

وفي اليوم التالي اشتريت أثاثا مناسبا لمظهري الجديد، واستأجرت شقة وكلفت أبرع المنجدين بتزينها بأحسن الرياش. واشتريت جيادا وألقيت بنفسي في دوامة من الملذات المزيفة والحقيقة على السواء ...

كنت أقامر عن طريق راستنياك فأربح وأخسر مبالغ طائلة، ثم تدرجت في الجرأة فرحت أشترك في موائد الميسر التي تقام في السهرات عند الأصدقاء لا في المحلات العامة، وفي الوقت نفسه نشرت بعض مقطوعات أدبية أكسبتني ثناء من النقاد وغيرهم، فكبار الأدباء المحترفين لم يجدوا مانعا من التنويه باسمي ما دمت لست منافسا، لأني في نظر الجميع سيد ثري

يتحلى بالأدب كأداة يستكمل بها الجاه والظرف ...

ولم أقابل تيودورا في وسط تلك المعمة السحرية إلا مرة واحدة، فقد كنت ذات ليلة أمام مسرح البوفون عقب انتهاء التمثيل أنتظر عربتي، وكانت هي هناك أيضا، فقالت لي بلهجتها التي تقطر سما:

- آه! أراك ما زلت على قيد الحياة!

ثم مالت على أذن صاحبها تهمس له ولا شك بقصتي في قالب تهكمي، فكانت تلك الليلة من أفظع الليالي التي مرت بي ...

وأخذت أنحدر بعد ذلك في حياتي المالية المضطربة، أستدين وأوقع الصكوك بأي مبلغ وبأي فائدة، ويحل موعد الدفع فلا أجد معي شيئا، فأستدين من آخرين كي أفي بديني الأول .. وهكذا دواليك، وبلغ الانحدار في مهاوي الضيق والحماقة والاستهتار غايته حينما أقدمت على بيع تلك الجزيرة الصغيرة التي احتفظت بها من ميراث أمي لأنها تضم مقبرتها، بعتها لرجل رغب في شرائها ليربي فيها خيوله!

ولن أنسى اللحظة التي وقعت فيها عقد البيع عند الموثق، خيل إلى أن أمي تناديني وأن خيالها قد شخص أمامي، وسط دقات أجراس تملأ الفضاء، ومع هذا لم أتراجع وأمضيت العقد ...

وفكرت أكثر من مرة أن أهجر هذه الحياة المخزية وأعود إلى حجرتي التي تنتظرني في فندق سان كنتان، حيث أعكف من جديد على البحث العلمي، واستغل آلاف الملاحظات الخصبة التي أمتلأ بها ذهني من ممارسة الحياة والاحتكاك بالناس، وستعينني السمعة الأدبية التي حصلت عليها كي

أنجح في حياة التأليف، ولكن تيودورا لم تكن قد أفلتت فريستها بعد، كانت لا تزال مسيطرة على فؤادي.

وبمضي الوقت انتقلت منها إلى عدوى الجذام الاجتماعي، جذام الترف والغرور بالباطل، فلو أنني امتلكت الملايين لما كففت عن تلك الحياة الصاخبة وعن المقامرة، لأن المقامرة أصبحت إدمانا بعد أن كانت وسيلة دفعتني إليها الضرورة على المال

أصبحت أفزع من الوحدة ولا أطيق أن أنقطع عن ضجة المجتمع صرت عبدا مقيدا بمن يؤنسون وحدتي ويشغلونني عن نفسي من العاهرات وأصدقاء الرخاء المنافقين، بين رنات الكؤوس .

وأخيرا نضبت جميع مواردي وركبني النحس وسدت في وجهي المسالك، ووجدت في يدي قطعة واحدة من ذات العشرين فرنكا. وتذكرت قصر الميسر المسمى باليه روايال. وإلى هناك ذهبت لأقذف بسهمي الأخير. فإما ربحت واستأنفت الحياة التي جفت ينابيعها بجفاف المال، أو وضعت حدا لحياتي.

سر خاتم سليمان

وأخرج رفاييل الطلسم من جيبه وقد لمعت عيناه، ثم صاح هاتفا:

فليذهب الموت إلى الشيطان! الآن اشتاقت نفسي الحياة! فأنا الآن غني جدا، أتدرون ما معنى أني غني جدا؟ معناه أنني إنسان كامل، يتمتع بجميع الفضائل. لا يصعب علي شيء ولا أجد من أحد مقاومة. ثم خبروني من الذي لا يغدو طيبا جدا متى أصبح قادرا على كل شيء؟ إن الضعف هو الذي يورثنا الحقد. والحقد هو الذي يورثنا القسوة والشح!

وضرب على جلد الفرا بكفه ثم صاح كالمخبول:

- أريد دخلا سنويا ثابتا لا يقل عن مائتي ألف جنيه! هذه إرادتي، وسيكون لي ما أريد ..!

وتكاثر المدعوون حول رفاييل الذي كان هادئا طول الحديث، ثم انتهى إلى الهياج والصخب، واستيقظ بعض النيام فوق الموائد من تأثير السكر وراحوا يسبونه. وهو واقف في وسطهم يترنح ويلوح بالطلسم ويجيبهم:

- اسكتوا أيها الكلاب! أدخلوا جحوركم! يا أميل! عندي كنوز الأرض تحت يدي وسأهديك كمية من سيجار هافانا!

- إن تيودوراك هذه أتت على عقلك، وهي ليست إلا امرأة عادية من

بنات حواء، وقصتك معها ليس فيها شيء طريف.

- إخرس! أنا مليونير.

- ربما، ولكنك بالتأكيد سكران، سواء كنت مليونيرا أم لا!

- أيها الغبي، لست سكرانا بالخمر، أنا سكران بالسلطان! في مقدوري أن أقتلك! صمتا يا هؤلاء! أنا نيرون! أنا نبوخذ ناصر.

- أرجوك يا رفاييل أن تحافظ على وقارك من أجل وظيفتك الجديدة .. تذكر أنك رئيس التحرير.

- لا سكوت بعد اليوم! لقد لبثت طول حياتي مكرها على الصمت.

- والآن سأنتقم من العالم أجمع، سأفرض سلطاني على الأرواح والعقول والأوبئة، في استطاعتي في هذه اللحظة أن أملك تيودورا. ولكن إرادتي اليوم أن أنساها ما دمت أملك الخيار بين التمتع بها والاستغناء عنها.

- اسمع. إن أنت لم تكف عن الصراخ، سأكتم أنفاسك قهرا، لا تفسد مستقبلك فتفقد رئاسة التحرير بهذا الهذيان.

- بل أسمع أنت! أترى إلى هذا الفراء؟ إنه خاتم سليمان. كان سليمان يسخر المردة والجان. وأنا أيها العزيز اسخر سليمان. هل فهمت الآن؟

- رئاسة التحرير أرجوك!

- اطمئن. ففي استطاعتي أن أشتري جميع الصحف الموجودة والتي لم

توجد بعد بإدارتها ومحرريها. وأجعل منك كبيرا لخدمي من كبار الصحفيين. وستكون مسرورا بهذا الشرف ...

وعندئذ لم يطق أميل صبرا فحمله من الصالون حملا إلى قاعة المائدة...

- أجلس هنا حتى تفيق قليلا. وأسكت إن كنت تحبني ...
- أحبك؟ طبعا، ولهذا ستدخن طول حياتك سيجار هافانا بفضل هذا الطلسم. بسر خاتم سليمان. وسترى، يجب أن تؤمن بالطلسم ...
- وكيف تريدني أن أؤمن بهذيان سكرك؟
- أراهنك. وأستطيع أن أثبت لك ما أدعيه. هيا نقيس طول الجلد بهذه المنشفة. وسنرى بعد تحقيق الأمنية هل ينكمش أم لا؟
- هيا يا أخي نقيسه ...

وبسطا المنشفة فوق المائدة. وفي وسطها جلد الفرا المرقش.

وقام أميل لأنه أثبت الأثنين يدا برسم حدود الجلد بالقلم الرصاص على المنشفة البيضاء، ثم قال رفاييل:

- أنت سمعتني أتمنى إيرادا ثابتا مائتي ألف جنيه في السنة..أليس كذلك؟
- بلى. سمعتك ..
- والآن سترى بنفسك متى تحقق هذا الطلب، مقدار انكماش الطلسم...

– عندئذ استطيع أن أصدقك. ولكن أرجوك الآن أن ترقد على هذه الأريكة لتنام قليلا. فإنك ظللت تتحدث وتشرب طول الليل.

– نعم هكذا. وخذ هذه الوسادة الصغيرة تحت رأسك. وهذه الأخرى تحت قدميك ...

– مرحى مرحى. أنك أصلح إنسان فعلا كي تكون خادمي الخاص تدللني، وترفه عني، وتضحكني، وتهش لي الذباب. وصديق الضراء من حقه أن يكون أيضا صديق السراء، وسأهتم بأن تدخن باستمرار سيجار هافانا ...

– نم أيها المليونير العظيم!

– ليس هكذا بل قل طاب نومك يا نبوخذ ناصر ..!

وسرعان ما تألفت موسيقى غريبة من أصوات غطيط الصديقين .. وبعد سويعات بدأ هذا الجمع من المخمورين المنطرحين في كل مكان يتحرك. بعد أن قضى النعاس على ما كانوا يتخايلون به من الأناقة والوجاهة. أما الحوريات الفاتنات فتبدد سحرهن وبدت وجوهن مصفرة تحت الطلاء المسموح، وعيونهن باهتة متكسرة من كثرة السهر واحتساء الخمر ...

واستيقظ رب البيت. كي يصدر الأوامر إلى خدمة وطهاته ليعدوا الإفطار، في حين انصرف المدعوون والمدعوات إلى إصلاح زينتهم بقدر الإمكان أمام المرايا. وأقبل الخدم يحاولون ترتيب الأثاث الذي أختل نظامه بعربدة القوم ...

وفي الوقت الذي تم فيه إعداد المائدة، والتف الجميع حولها، إذا بموثق العقود كاردو، الذي كان في الليلة الماضية قد دون في مفكرته اسم رفاييل دي فالنتان، وقد دخل قادما من بيته لأنه كان حريصا على الانسحاب بعد منتصف الليل، خشية غضب زوجته الفاضلة ...

ووقف كاردو عند الباب يرد على من استقبلوه بالمزاح والسخرية قائلا:

– كفى هزرا، فقد انتهيت في مهمة رسمية جدية، أني أحمل سبعة ملايين لواحد منكم!

فساد صمت عميق، وعندئذ وجه كاردو الكلام إلى رفاييل الذي كان في تلك اللحظة يمسح عينيه بطرف منشفته من غير مبالاة.

– سيدي. ألم تكن والدتك من آل أوفلاهارتي؟

فأجابه رفاييل بصورة آلية:

– بلى، كان اسمها ماري أوفلاهارتي ...

– وهل معك الآن شهادة ميلادك وشهادة ميلاد والدتك؟

– أظن هذا ...

– إذن فأنت يا سيدي الوريث الوحيد للميجور أوفلاهارتي الذي توفي في أغسطس سنة ١٨٢٨ بمدينة كلكتا بالهند، وقد أوصى مورثك بجملة هبات لبعض المؤسسات العامة. وسلمت شركة الهند البريطانية صافي التركة إلى الحكومة الفرنسية. والثروة الآن تحت أمرك وأذنك عدا

ونقدا، ولي خمسة عشر يوما أسأل جميع العاملين عن الأنسة ماري أوفلاهارتي، إلى أن حدث أمس هنا ...

وانصرف عنه رفاييل فجأة مما أشعر الموثق المسكين بالإهانة، ولكنه كان في الواقع قد شعر بوخزة شديدة، جعلته ينهض على الفور ..وهلل الحاضرون من حوله بعد أن لبثوا برهة طويلة مبهوتين من وقع المفاجأة. وتكاثروا حوله كل منهم يحييه بكلمة ويتقرب إليه.

وفي عيونهم جميعا الحسد والجشع. أما هو فلم يعرهم التفاتا بل بسط على المائدة المنشفة التي طواها على الطلسم. فارتعدت فرائضه عندما رأى الطلسم قد أنكمش انكماشا يسيرا، الأمر الذي جعل أميل في دهشة، حتى أنه صاح:

- لقد حصلت على ثراء عريض بثمن بخس ...

أما رفاييل فكان وجهه شاحبا جدا، حتى خشى عليه الناس أن يموت من شدة الفرح، وراحوا يتنادون لجلب الهواء له بالمناديل ...

ونظر رفاييل إلى الطلسم ثلاث مرات، وهو لا يدري كيف يحلل شعوره أمام اليقين الجديد بأن العالم كله طوع أمره. وفي الوقت نفسه، رأى بوضوح أن كل رغبة من رغباته تكلفه جانبا من أيامه، فلا شيء بدون ثمن...

وكانت هذه الفكرة في حد ذاتها كافية كي تتسارع أنفاسه، ويزداد شعور بالدوار، حتى لقد تساءل:

– لقد ماتت والدتي بذات الرئة، فهل ترى ورثت عنها هذا الداء؟

لكنه لم يستطع أن يسترسل في هذه الأفكار السوداء، لأن الغواني والأصدقاء راحوا يرقصون من حوله، ويعبون الكؤوس على ذكرى خاله الراحل، وهو يحملق فيهم ولا يكاد يفقه كلمة واحدة من صياحهم وضجتهم.

وتقدم منه رب القصر متلطفا وقال له:

– ألا توجد رغبة لك في شيء من هذا الطبق؟

ودهش الرجل لأن فالنتان رمقه بنظرة منكرة، وقال:

– ليست لي أية رغبة في أي شيء ...

وصفق أحد الحاشرين مرحا، وهتف:

– مرحى أيها الرفاق، هذه أولى بوادر الثراء ... الوقاحة ... الوقاحة المغتفرة! فلنشرب جميعا نخب سلطان الذهب الذي ليس له حد! فالمسيو دي فالنتان منذ اليوم مليونير ست مرات: إنه ملك، إنه إمبراطور، إنه فوق كل شيء، أنه الرجل الذي يعرف مدى ضلال وخداع الكلمة السخيفة التي تضمنها الدستور كأساس للقضاء بين الناس، ألا وهي أن جميع المواطنين سواسية أمام القانون! زور وبهتان! الذهب وحده قانون نفسه، لا يمكن أن يخضع لقانون سواه، إن رفاييل دي فالنتان لن يخضع للقانون بعد اليوم، بل القانون هو الذي سيخضع له، لم تخلق السجون والمشانق لأصحاب الملايين! ...

ولم يدرك أحد من الحاضرين مدى مرارة رفاييل وهو يقول:

- لأنهم يا صاحبي سجناء أنفسهم وجلادي أنفسهم ...

ولم يشأ أن يعلق بأكثر من ذلك لأنهم لن يصدقوه، فإن أميل نفسه أبى أن يصدقه في أن مقدار الطلسم هو مقدار عمره. ولم يجد بدا من الانكباب على الخمر سائر ذلك اليوم، لينسى المصيبة التي انفجرت في حياته كالقنبلة، فقلبته من حال إلى حال، وصيرته عبدا حيث يحسبه الناس مطلق السلطان.

راكب الأسد

وفي الأيام الأولى من شهر ديسمبر، شوهد شيخ في السبعين يسير في شارع فارين، غير مبال بالمطر، يرفع أنفه عند باب كل قصر، باحثا عن عنوان سعادة المركيز رفاييل دي فالنتان، في سذاجة ريفية، وشرود كشرود الفلاسفة. وبعد أن تحقق من الرقم، طرق باب القصر برفق، ثم سأل الخادم السويسري ذي الثياب الرسمية الذي فتح الباب:

- هل المسيو رفاييل موجود؟
- إن المركيز لا يستقبل أحدا
- ولكني أرى عربته واقفة أمام الباب في انتظار خروجه، سأنتظره إلى أن يخرج.
- معنى هذا يا شيخي الطيب أنك ستظل منتظرا هنا إلى الغد، أو ربما بعد ذلك، فعربة فخامته دائما على قدم الاستعداد أمام الباب.
- لا تدخل من فضلك! دخولك هذا معناه فقداني معاشا مدى الحياة في وصية سيدي.

وفي هذه اللحظة ظهر في البهو رجل ضخم، تشبه كسوته كسوة حجاب الوزارات، واقترب هذا الرجل المسن نحو الطارق الغريب.

ثم صاح:

- من هذا؟

فقال الخادم السويسري للغريب:

- هذا هو السيد جوناثاث، السكرتير الخاص، كلمه بنفسك وبعد برهة دهش الخادم، إذ رأى الشيخين يتعانقان!

وكان أول ما أهتم به رفاييل بعد أن وضع يده على الميراث الكبير، أن بحث عن خادم أسرته القديم الوفي، لأنه الوحيد الذي يمكن أن يعتمد على إخلاصه له، وبكى جوناثاث فرحا عندما وقعت عيناه على مولاه الصغير الذي كان لا يدري عن أخباره شيئا، ولكن فرحه تجاوز كل حد، عندما رقاه سيده إلى وظيفة السكرتير الخاص، وناظر الخاصة الفالنتانية. وبمقتضى هذا التعيين أصبح جوناثاث هو الوسيط الوحيد بين رفاييل والعالم أجمع. فهو المنظم لثروته والمنفذ في طاعة عمياء لأوامره، وكأنه حاسة سادسة تصل عن طريقها أخبار هذا العالم إلى رفاييل.

أما هذا الشيخ الآخر، الذي جاء يطرق الباب، فكان مربيه الروحي، وأستاذه في المدرسة، السيد فوريكيه.ولما أفضى فوركيه إلى جوناثاث برغبته في لقاء ولده الروحي، قال له:

- اخفض صوتك، لا تتحدث إلا همسا، أي صوت هنا محرم

- ولكن هل المركيز مريض؟

- الله وحده يعلم ما أصاب مولاي، ولكن ثق أنه لا يوجد في باريس

على سعتها بيتا في مثل بيتنا هذا .. مستحيل! فالمركيز قد اشترى هذا القصر الذي كان يمتلكه فيما مضى دوق، وانفق على تأسيسه ثلث مليون. أسمعت؟ قلت لك ثلث مليون أنفقها على الأثاث والرياش. كل قطعة صغيرة هنا معجزة فنية. ولما رأيت ذلك انشرح قلبي وقلت لنفسي أن المركيز الصغير سيجدد عهد المرحوم جده حين كان يستقبل في قصره البلاط وكبار الشخصيات ويعيش عيشة الملوك. وإذا بي أجده على العكس لا يستقبل أحدا على الإطلاق، إن تلميذك السابق لا يريد إلا الاعتكاف كأنه راهب في صحراء، فهو يستيقظ كل يوم الساعة عينها، ولا أحد سواي يمكن أن يدخل حجرة نومه، أفتح بابها في السابعة تماما سواء في الصيف أو في الشتاء. ثم أقول: "سيدي المركيز، يجب أن تنهض وترتدي ثيابك" فينهض، ويرتدي ثيابه، ومن فوقها رداء الحجرة. وعنده دائما رداء واحد من نفس القماش ونفس اللون بدون تغيير. ولكما ذهبت جدة رداء. أتيت بنسخة أخرى مطابقة له على الفور، فأهم شيء ألا أضطره لطلب أي شيء! تصور أن الطلب الذي هو لذة الحياة كلها، لأنه الاستعمال الحقيقي لمدى قدرتنا، ممنوع على هذا السيد القادر منعا باتا، ثم يقرأ الصحف.

من غير أن يطلبها فأوامره أن يجدها دائما موضوعة في نفس المكان على نفس المائدة. وفي موعد معين بالضبط، أحضر بنفسي لأحلق له لحيته. من غير أن نتبادل كلمة واحدة!

– هذا مدهش

- والطباخ يا سيدي. فقد المسكين معاشا مدى الحياة كان ينتظره بعد وفاة سيدي لأن الإفطار لم يكن معدا في الساعة العاشرة بالدقيقة، أما الغذاء ففي الساعة الخامسة بالضبط، ولا محل للاستفسار عن قائمة الطعام لأنها معدة من قبل بكل تفاصيلها لمدة سنة كاملة. وعلى أساس أن توجد الخضر والفواكه في إبانها باستمرار ومن غير طلب. فأول سلة فراولة تصل إلى باريس هي التي توضع على مائدته. والبرنامج مطبوع ومحفوظ عن ظهر قلب، وملابس الخروج أعدها له بنفسي، وأضع الأقمصة النظيفة فوق مقعد معين وكذلك الجورب، وكذلك الحلة التي يرتديها في يومه، وإذا كان النهار مشرقا صحوا، أدخل لأقوله له: "هل سيخرج مولاي" فلا يجيبني إلا بلا أو نعم، وفي هذه الحالة ينبغي ألا يضطر لطلب عربته أو السؤال عنها، بل يجب أن تكون مسرجة وواقفة على قدم الاستعداد أمام الباب في كل وقت. والحوذي في مكانه شاهرا سوطه كما رأيته بنفسك.

- وأمسياته كيف يقضيها؟

- برنامج ثابت أيضا. فبعد العشاء يذهب إلى الأوبرا ليلة وإلى المسرح ليلة أخرى، ولم أستطع الحصول له على مقصورة دائمة في المسرح الإيطالي إلا اليوم، ويعود المركيز إلى البيت في الحادية عشر بالضبط يأوي إلى فراشه. وخلال جميع أوقات النهار لا يصنع شيئا سوى القراءة ، إنه يقرأ باستمرار.

- هذه علامة طيبة!

- لو أنها كانت في حدود المعقول، ولكني مكلف أن أقرأ الصحيفة الأدبية كل يوم قبل أن يقرأها، كما أشتري الكتب الجديدة يوم صدورها، وأضعها فوق مدفأة حجرته، وعلي أن أدخل مرة في كل ساعة كي أحرك نار المدفأة وأتأكد أنه لا ينقصه شيء، وبلغ من شذوذه أنه أعطاني كتابا صغيرا كلفني بحفظه عن ظهر قلب، فقد أودع هذا الكتاب جميع واجباتي ومسئولياتي، فأنا مثلا مكلف أن أستعين بالثلج لأحتفظ بدرجة رطوبة معينة على الدوام. وأن أضع زهورا ناضرة باستمرار في كل مكان. فهذا الفتى المسكين حرم طويلا من الضروريات بحيث صار الترف مهما عنده جدا.

- ما أثقل مسئولياتك يا سيد جوناثاث.

- إياك أن تظن أنه ثقيل الوطأة على أحد، إنه لا يرهق أحدا بل على العكس طيب جدا، لا يقول لأحد شيئا. وكل ما يريده هو السكون المطبق في أرجاء البيت والحديقة، ورغباته لا ينطق بها.بل يجب أن أفهمها من النظرة والإشارة، وفي الوقت نفسه يوفر علينا جميع الأوامر التفصيلية التي لا لزوم لها، فهناك وسيلة معينة بمقتضاها يفتح باب حجرته فتنفتح آليا جميع أبواب الحجرات الأخرى من تلقاء نفسها. وبهذا يستطيع أن يسير في القصر من أوله إلى آخره من غير أن يجد بابا واحدا مقفلا، وهذا يسهل علينا الأمور جدا. إلا أنه كلفه مبلغا طائلا، أنا الذي أقوم بكل شيء بالنيابة عنه وأرعى شئونه، أتدري يا مسيو بوريكيه أنني هنا السيد بواقع الأمر وهو الخادم! ... أنا الآمر المتصرف وهو الخاضع المطيع!

فهز الأستاذ القديم رأسه هزة الفاهم للأسرار، قوال:

- معك كل الحق في حيرتك. ولكني أنا عرفت الآن سر هذا اللغز.
- ما هو بربك؟
- تعليل واحد دون سواه يفسر سلوك مولاك، وهو عكوفه على تأليف كتاب خطير، فهو شاب نابه موهوب، والرجل الموهوب يجب أن ينسى كل شيء ليفرغ بحواسه كلها إلى عمله. ومما يروى عن نيوتن الشهير ...
- نيوتن؟ .. لا أذكر شخصا بهذا الاسم.
- نيوتن رياضي عظيم. قضى مرة أربعا وعشرين ساعة متكئا بمرفقه على المائدة فلما أفاق من شروده لم يفلحوا في أقناعه أن اليوم ليس الأمس. فدعني من فضلك أقابل ابني الروحي، لأني الشخص الوحيد الذي يحتاج إليه الآن. قدني إلى حجرته.
- ليس بهذه السرعة يا سيدي. حتى ولو كنت ملك فرنسا! أعني الملك السابق. انتظر هنا حتى أذهب إليه وأقول له أنك هنا وأسأله هل يجب أن تصعد إليه أم لا؟ وقد يجيب بنعم وقد يجيب بلا، فأنا لا أقول له تسمح أو ترغب، فهذه الكلمات ومرادفاتها ساقطة من قاموسه، بعد أن أفلتت مني حسب العادة عبارة من هذا القبيل، فاتقدت عيناه غضبا، وزأر قائلا: "أتريد أن تقتلني؟"

وترك جوناثاث الأستاذ الشيخ في البهو، بعد أن شدد عليه مرارا ألا

يتحرك من موضعه، ثم عاد إليه في الحال بالموافقة على صعوده ووجد بوركيه تلميذه القديم بقرب المدفأة مرتديا ثوب الحجرة الفاخر وغارقا في مقعد وثير يقرأ صحيفة، وقد بدا على وجهه الاكتئاب الشديد حتى هزل وخبت نظرته كأن داء خفيا يسري في حناياه.وقد جعل يدخن الأفيون، والدخان الأزرق يملأ جو القاعة كأنه الأفاعي.

وحز في الشيخ الطيب القلب منظر هذا الشاب الذابل الذي يرمقه بنظرات غريبة أشبه بنظرات العاجز المرغم على كتمان رغائبه خوفا من المذلة. ولم يكن يدري أن هذا الذي يملك سر القدرة التي لا حد لها كان أشبه بالبخيل الذي يملك كنوز الأرض ويخشى أن ينفق منها شيئا حتى لا تنقص ثروته.

إن هذا الشاب الذي كان أقدر الناس كان أشدهم عجزا. كان كراكب الأسد يحسبه الناس أعزهم مكانا، وهو أخوفهم فؤادا وأشقاهم جنانا. فرض على نفسه، لخوفه من استنفاد أيامه، أن يقضي أيامه هباء لا يملأها بشيء من ممارسة الحياة، فغدا كالآلة يحرم على نفسه الخيال والطموح والرغبة والإرادة والتمني.وهي التي يتمتع بها أحقر الحقراء حتى المحكوم عليهم بالإعدام.

دخل هذا الشاب إلى الطمع من باب اللذة والشهوة، وانتهى في خضم القدرة والسلطان إلى العجز والنسك والحرمان.فلا عجب أن يدهش الأستاذ الشيخ ولا يكاد يعرف في المركيز تلميذه الفني المتوقد الحيوية، لولا أن رفاييل صافحه بيد رطبة ساخنة رخوة، وقال:

– مرحبا بك يا أبي بوريكيه. كيف صحتك؟

– أما عني فأنا بخير حال يا بني، ولكن أنت؟

– أحسبني بخير.

– هل تشتغل في إعداد بحث علمي؟

– كلا للأسف، فبعد كتابي الأول ودعت العلم وداعا أبديا، حتى أنني لا أذكر الآن بالضبط أين وضعت المخطوط؟

ورفع بصره بحركة لا إرادية إلى الحائط المواجه حيث علق جلد الفرا فوق أديم من المخمل الأبيض. طرز بعناية وبخيوط من ذهب حول الشكل الأصلي لقطعة الفراء. بحيث يظهر الفرق بين شكل الطلسم الحالي وشكله الأول واضحا. رفع رأسه ونظر إلى هناك من غير إرادته. فهذا الطلسم هو محور حياته كلها. إنه الأسد الذي حكم عليه أن يعاشره دائما فيستخدمه ويحاذر على الدوام من إثارة ضراوته. ولكن الأستاذ المسكين لم يكن يدري السر.

وأصغى المركيز مدى ساعة كاملة لمشكلة الأب بوريكيه مع وزارة المعارف وكيف جارت عليه في تقدير معاشه بعد ثورة يوليو، فبات المسكين من غير مصدر للرزق، مع أنه يكفل ابن أخت له ما زال طالبا، ومن أجل هذا الغلام جاء يستنجد بالمركيز باعتباره الشخصية الوحيدة التي تستطيع إنقاذه ليتوسط لدى الوزارة كي ترد عليه حقه المهضوم.

ظل رفاييل يصغي لهذا كله تأدبا، ثم قال له على سبيل المجاملة:

– مسكين أيها الأب بوريكيه، كم أتمنى أن توفق في مساعيك.

ومن غير أن يفقه بوريكيه شيئا، رأى المركيز ينهض مذعورا بعد هذه الكلمة، وتتعلق عيناه بجلد الفراء، فإذا بمسافة أخرى صغيرة أضيفت إلى رقعة القطيفة البيضاء تمثل انكماش الطلسم.

– أخرج أيها البهيم العجوز! كل هذا من أجل وظيفة حقيرة في التدريس؟! ألم يكن أولى بك أن تطلب مني ألف جنيه راتبا سنويا من جيبي الخاص؟ إن في فرنسا مائة ألف وظيفة ومائة ألف معاش. ولكن حياتي واحدة. يا جوناثاث!

وظهر جوناثاث على الفور مذعورا لثورة مولاه:

– هذه هي ثمرة فعالك أيها المعتوه! لقد جعلتني أستقبل هذا المعتوه لسوء طالعي! أتراني وضعت حياتي بين يديك كي تمزقها وتلقيها للكلاب؟ لقد ضننت على نفسي بأحضان الحسناء تيودورا حتى لا أدفع هذا الثمن من أجل عيني هذا الأبله الخرف! وماذا يضيرني لو مات ألف بوريكيه جوعا؟!

وعندئذ كان الهياج قد بلغ من رفاييل مبلغه، فابيضت شفتاه وزاغت عيناه، وتهاوى فوق مقعده وهو ينشج بالبكاء ،وزاغت عيناه، وتهاوى فوق مقعده وهو ينشج بالبكاء:

– يا لحياتي الضائعة! يا لحياتي المسكينة، سحقا لجميع العواطف النبيلة، سحقا للحب، سحقا لكل شيء! ما من شيء يعدل الحياة ... مجرد الحياة.

فلما هدأت نفسه قليلا ألتفت إلى الأستاذ المبهوت وقال:

- سبق السيف العزل يا صديقي، ولا راد لكلمة القضاء، وكان في وسعي أن أجزيك خير الجزاء وبالمال العريض والترف على خدماتك التي لن أنساها، وكان ذلك خيرا لي وأبقى لو انك تعلم ...

وعندئذ همس بوريكيه لجوناثاث:

وسمعه رفاييل فابتسم في يأس، وقال برفق:

- إنك يا صديقي الكريم تريد أن تمهد لي العذر أمام نفسك وأمام نفسي، فأنك تقدر أن المرض عارض ينزل بنا لا حيلة لنا فيه.أما القسوة فنقيصة ورذيلة لأنها من فعل يدنا، أتركني الآن وسترى غدا وربما اليوم أن مآربك جميعا في سلك التعليم قد تحققت ...

وانسحب الشيخ المسكين، وقد امتلأ حزنا وجزعا على سلامة عقل تلميذه وولده الروحي، حتى خيل إليه أنه في حلم.أما رفاييل، فقال لخادمه القديم:

- اسمع يا جوناثاث، حالو أن تفهم خطورة المهمة التي عهدت إليك لها.

- أجل يا سيدي المركيز.

- إني إنسان على خلاف المألوف في أحوال الناس وطبائعهم.

- طبعا يا سيدي المركيز!

- إن جميع ملذات الحياة ترقص حول سرير موتى كما ترقص جنيات الأساطير في إغراء لا حد له، ولكني أنظر إليها في رعب ، لأني أرى

وراءها ملك الموت! الموت يا جوناثاث! هو دائما لا سواه أراه في كل شيء وفي كل أحد. وهو الحائل الدائم القائم بيني وبين أدنى رغباتي. ويشل حياتي وعواطفي وشهواتي.

- ولكن يا سيدي إن كنت زاهدا في الحسان فماذا سنصنع بمقصورة المسرح الإيطالي التي ستقضي فيها سهرة الليلة. لقد حصلت عليها بتعويض كبير من الأسرة الإنجليزية التي كانت استأجرتها طوال الموسم. مقصورة من الدرجة الأولى في الصدر. كنت طلبتها منذ زمن.

ولكن رفاييل، كان قد شرد بعيدا، لا يسمع منه ولا يعي ..

الحب

عندما دخل رفاييل مقصورته تلك الليلة لأول مرة في المسرح الإيطالي لمح تيودورا في الجانب الآخر من القاعة، أمامه مباشرة. ولا شك أنها كانت قد وصلت قبل ذلك بقليل لأنها كانت تكشف عن عنقها ذلك الشال الذي كان يغطي كتفيها، وتستعد لاتخاذ الوضع المدروس الذي تحب أن تبدو عليه أناقتها. وكانت جميع الأنظار مسلطة عليها. وفي رفقتها شاب من النبلاء تناولت منه منظارها الذي كان يحمله لها، ومن حركات ذلك الشاب ومن طريقة نظرها إليه أدرك المركيز على الفور مدى العبودية التي يرزح تحتها خليفته، فهو نسخة جديدة منه، ولا شك أنه يعاني ألوان العذاب التي تصبها تلك المرأة بدهائها عليه، وهي جنة زهد فيها فالنتان لحسن حظه.

وأشرق محيا تيودورا بسرور لا يوصف بعد أن حالت بمنظارها الكبر بين جميع المقاصير وفحصت على عجل جميع الأزياء، إذ شعرت أن زينتها وجمالها لهما التفوق الكامل تلك الليلة أيضا، على أكثر نساء باريس أناقة، وراحت تضحك لتكشف عن أسنانها البيضاء، وتهز رأسها المحلى بالأزهار لتجتذب نظرات الإعجاب وتتسلى بالتهكم على هذه القبعة التي تعلو رأس أميرة روسية، أو ترتديها بغير انسجام ابنة صيرفي كبير.

وفجأة شحب وجهها عندما التقت بعيني رفاييل الثاقبتين، ذلك أن

عاشقها المهجور كان يرميها بنظرات احتقار لا تطاق. فقد تعودت من كل من تعرض عنهم أن يجحدوا سلطانها عليهم، فكان فالنتان هو الذي شذ على قاعدة فتنتها الطاغية بعد أن صدته.

وعند بداية الفصل الثاني دخلت امرأة فجلست بالقرب من رفاييل في مقصورة ظلت خاوية حتى تلك اللحظة، وانبعثت من القاعة بأكملها همهمة إعجاب. والتفت كل ذلك البحر الطامي من الرؤوس ليتطلع إلى تلك المجهولة بغير خلاف بين الشيب والشبان، حتى اضطر عازفو الموسيقى إلى طلب الصمت من الجمهور، والغريب في الأمر أنه حين التفت العازفون وراءهم ليطلبوا الصمت اكتشفوا مصدر تلك الهمهمة، فاشتركوا في الخطأ الذي شكوا منه.

فمالت الرؤوس في المقصورات تتهامس طويلا. ورفعت النساء مناظيرهن إلى عيونهن، أما الشيوخ المتصابون فراحوا يمسحون بجلد قفازاتهم زجاج مناظيرهم ليحسنوا الرؤيا. ثم هدأت الحماسة بالتدريج، وجلجلت الأغاني فوق المسرح، وعاد كل شيء إلى نظامه المألوف، وكأنما خجل ذلك المجموع الراقي من إطلاقه العنان لذلك السلوك الطبيعي، فاستردوا برودهم الأرستقراطي وحركاتهم المقدرة، ومع هذا ظل بعض الرجال جامدين في لفتتهم منصرفين عن الموسيقى، مستغرقين في سحر ساذج، مشغولين بالتمعن في جارة رفاييل الحسناء، وحتى راسنينياك الذي كان في صحبة مدام دي نوسنيجين وابنتها جعل يعبث بقفازه في ضجر، شأن المسلسل الذي يود لو انطلق إلى حيث تجلس هذه الحورية المجهولة.

وكانت حياة رفاييل معلقة بميثاق تعهد بمقتضاه ألا ينظر بإمعان إلى أية امرأة، ولكي يحافظ على حصانته من كل غواية كان يحمل للمسرح منظارا ذا عدسة خاصة تهدم التناسق بين الملامح وتجعل الأشكال الجميلة آية في القبح.

وفي الوقت نفسه كان رفاييل لا يزال واقعا تحت تأثير الرعب بعد الذي حدث له في صباح ذلك اليوم حينما تورط عفوا في كلمة مجاملة فتقلص الطلسم، لهذا أصر رفاييل على ألا يلتفت نحو جارته. فجعل ظهره إلى ركن المقصورة كي لا يراها، غير مبال أنه يحجب عنها نصف المسرح وكأنه متعمد أن يتجاهلها.

وكانت الجارة الحسناء تقلد فالنتان في جلسته تماما. فظهرها نحوه ومرفقها فوق حاجز المقصورة، وبصرها موجه إلى المنشدين لا تحول عينيها كأنها جالسة أمام رسام ليصورها. فما كان أشبه هذين بحبيبين متنابذين يتدابران كي يتعانقا عند أول كلمة عتاب.

وفي الحين بعد الحين كانت خصلات من شعرها تلمس رأس رفاييل فتثير فيه رجفة حامية كان يقاومها بشجاعة، أما عطرها فكان طول الوقت يغزو خياشيمه فيسكره، فراحت مخيلته ترسم رغم إرادته صورة لتلك المرأة بملامح من نار، وهو يتململ في جلسته. وحدث أن التفت فجأة فأحست جارته به، ولم تكن تتوقع أن يلمسها أحد فالتفتت هي أيضا.

وتلاقت نظراتهما ..

– بولين!

– مسيو رفاييل

ثم جمدت نظراتهما لحظة طويلة في صمت. ورأى رفاييل بولين في زينة بسيطة تنم عن ذوق طيب، ومن وراء غلالتها كانت العين المدربة تستشف بياضا كبياض الزنبق، وقد يرغم أية امرأة على الإعجاب به والغيرة منه، ولكنها مع هذا كله، بل في هذا كله هي هي بولين في عذريتها المتواضعة، وخفرها الساحر، ورشاقتها المحببة.

ووشى كم ثوبها بالاضطراب الذي سرى في جسدها كله، مع دقات قلبها المتلاحقة:

– تعال غدا إلى فندق سان كنتان لتسترد أوراقك، سأكون هناك في الظهر، فأحرص على الحضور.

ونهضت بسرعة فاختفت، وهم رفاييل أن يتبع بولين بيد أنه خشى أن يسبب لها حرجا، فبقى حيث هو ونظر نحو تيودورا فوجدها كالحة قبيحة، وحاول أن يصغى للموسيقى فلم يفقه منها عبارة واحدة. وطفح قلبه بالأحاسيس تحت وقع المفاجأة، فكاد يختنق في تلك القاعة، فانصرف إلى قصره.

وما إن أوى إلى فراشه حتى قال لخادمه العجوز:

– يا جوناثاث أعطني قطرة من الأفيون على قطعة من السكر ولا توقظني غدا إلا قبل الظهر بعشرين دقيقة.

وفي اليوم التالي ارتدى ثيابه، وهم أن يخرج ليذهب إلى موعده مع

بولين ، ولكنه في هذه المرة تقدم نحو الطلسم ودقه بيده في عزم وصاح:

- أريد أن تحبني بولين! أريد!

ولم تهتز خلية واحدة في رقعة الطلسم، وكأنه فقد قدرته العجيبة على الانكماش، ولم يخطر ببال رفاييل أن شيئا واحدا يستحيل على ذلك الطلسم أن يفعله، وهو تحقيق رغبة تحققت فعلا من قبل، ولهذا صاح وقد شعر أنه تخلص من عبء ثقيل:

- ألا تطيعني بعد الآن؟ هل فسخ الميثاق الذي بيننا؟ لقد تحررت إذن! وسأعيش!

وأخذ رفاييل طريقه إلى فندقه القديم سائرا على قدميه ليستعيد في الطريق ذكريات أيامه السعيدة الماضية، التي كان يستسلم فيها لأعاصير الرغبات والأهواء، غير حاسب حسابا للثمن الفادح.

ولما وصل العتبة البالية لذلك الباب الذي طالما شهد أيام بؤسه ويأسه، برزت امرأة عجوز من البهو وقالت له:

- ألست المسيو رفاييل دي فالنتان؟

- بلى يا أمي ...

- إنك تعرف مسكنك القديم، فأصعد لأن هناك من ينتظرك فيه.

- وهل مازالت مديرة هذا الفندق مدام جودان؟

- كلا يا سيدي، فمدام جودان هي الآن البارونة دي جودان، تسكن بيتا فخما تملكه على الضفة الأخرى بعد أن عاد زوجها من غربته

ومعه الملايين. إنها تستطيع الآن أن تشتري كل حي سان جاك إذا شاءت. وقد أعطتني هذا البيت هبة خالصة بغير مقابل، فهي امرأة طيبة سواء كانت بارونة أم لا، لم تتغير ولم تتكبر. بل هي هي كما كانت هنا.

وصعد رفاييل إلى سقيفته القديمة بخفة، وقرب نهاية الدرج سمع أصوات البيانو، ووجد بولين جالسة إليه في ثوب بسيط ولكنه آية في سلامة الذوق وقد ألقت قفازيها وقبعتها وشالها فوق الفراش، وما إن أطل عليها حتى نهضت في ابتهاج صادق وصاحت به:

- أهذا أنت إذن؟

فجاء رفاييل وجلس بقربها، وقد أحمر وجهه خجلا وسرورا وجعل ينظر إليها ولا يتكلم، فغضت عينيها وقالت:

- لماذا فارقتنا؟ وإلام صار أمرك؟

- آه يا بولين. كنت يومئذ شقيا، وما زلت!

- لم يغب عني هذا حين رأيتك بالأمس حسن الهندام وجيه المظهر، ولكنك في حقيقة الأمر شقى، أما زلت يا مسيو رفاييل كما كنت سابقا؟

فلم يستطع فالنتان أن يمنع دمعة فرت من مقلته، وصاح:

- بولين! إني ...

ولم يكمل لأن عينيه أشرقتا بالحب، وقلبه طفر في نظراته، وصاحت

بولين:

– أوه! أنه يحبني! يحبني!

فأومأ رفاييل برأسه، لأنه لم يستطع الكلام، فتناولت الفتاة يده وضغطت عليها بيديها، وقالت بلهجة بين الضحك والبكاء:

– أغنياء أغنياء! سعداء أغنياء! إن بولينتك أصبحت غنية. وكم نذرت لله أن أدفع جميع كنوز الأرض لو ملكتها ثمنا لسماع تلك الكلمة منك! يا عزيزي رفاييل أني أملك الآن الملايين. وأنا أعرفك تحت الترف والأبهة، وستنال منك، ولكن يجب أن تحب قلبي أيضا، ففي هذا القلب يكمن لك حب كثير! ألا تعلم؟ عاد أبي. وأنا وارثة غنية، فسيترك لي أبواي تمام الحرية في تقرير مصيري واختيار زوجي.

وتناول رفاييل يدي بولين وراح يلثمهما بحرارة ونهم، فكأن قلبه ضرب من التشنج، فخلصت بولين يديها وطرحتهما على كتفي رفاييل. ثم تعانقا ذلك العناق الذي تشيع فيه عذوبة الطهر ولا تدنسه خاطرة سوء، ثم تبادلا تلك القبلة الأولى التي تتكاشف بها الروحان للمرة الأولى، وإلى الأبد.

وهتفت بولين وهي ترتمي فوق المقعد:

– آه يا رفاييل! لا أريد أن أتركك ... ويحي! لست أدري من أين وأتتني هذه الجسارة؟

– أتقولين الجسارة يا بولين؟ لا تخشي شيئا. فهذا يا بولين هو الحب.

الحب الحقيقي العميق الأبدي. أليس كذلك؟

- تكلم! تكلم! تكلم يا رفاييل. فطالما صمت فمك وأنا أتسقط كلمة منه.

- أكنت تحبينني أذن؟

- وأين كانت عيناك؟ وأين كانت فطنتك؟ كم من مرة بكيت هنا وأنا أنظف حجرتك حسرة على فاقتك وفاقتي. كنت أتمنى لو بعت نفسي للشيطان كي أوفر عليك ليلة ضيق واحدة! أما اليوم فقد انتهى كل هذا يا رفاييلي! لأنك لي الآن. لي هذا الرأس الجميل، لي هذا القلب، نعم هذا القلب على الخصوص .. هذا الثراء الأبدي! رباه أين كنت؟ ماذا كنت أقول؟ آه تذكرت. لدينا ثلاثة ملايين أو أربعة أو خمسة فيما أظن. وأني إذ أعرض عليك هذا لا أظني أعرض عليك شيئا ذا بال فإني إذ أمنحك يا رفاييل اليوم قلبي وشخصي وثروتي لا أعطيك ما هو أكثر قيمة مما أعطيتك يوم وضعت في درج هذه المنضدة قطعة من ذات الفرنكين زعمت لك أني عثرت عليها وأنا أنظف الحجرة. يا الله كم ألمت يومئذ لفورة فرحك المجنون!

- لماذا صرت غنية؟ ولماذا لم يركبك الغرور؟ أعلمي أنني أملك مثلك ملايين كثيرة. ولكن أية قيمة للثراء عندنا الآن؟ عندي حياتي في استطاعتي أن أقدمها لك .. خذيها.

- إن حبك يا رفاييل يساوي الدنيا جمعاء! إني حقا أسعد السعداء.

وطوقت عنقه بذراعيها ثم عقدتهما وراء رأسه، وقالت:

– قبلني من أجل جميع الأشجان التي سببتها لي. ولتمحو الألم الذي أورثتنيه أفراحك والليالي التي قضيتها أزخرف القماش بالألوان.

– ماذا تعنين؟

– ما دمنا أصبحنا الآن أغنياء يا كنزي، ففي مقدوري أن أصارحك بكل شيء، حقا ما أسهل أن نخدع رجال الفكر! أتظن أن تنظيف ثيابك وكيها وغسل قمصانك مرتين في الأسبوع كان يدخل ضمن إيجار حجرتك الشهري وهو ثلاثة فرنكات؟ إنك كنت تشرب من اللبن ضعف قيمة هذا الإيجار! أما المال فكنت أشتغل إلى الثانية صباحا في زخرفة القماش فأعطي نصف أجري لأمي والنصف الآخر أدسه في درجك أيها الطفل المسكين!

ولبثا برهة طويلة يتبادلان الحملقة في نشوة السرور والصبابة ثم صاح رفاييل متطيرا:

– سنؤدي ولا شك ثمن هذا الهناء شجنا فظيعا.

فدقت بولين صدرها بيديها وصاحت:

– أتراك متزوج؟ لن أتركك لامرأة أخرى!

– بل أنا حر يا عزيزتي

– وأفرحتاه أذن! حر. ولي. أخشى أن أجن من الفرح، كم أنت لطيف!

وراحت تعبث بأناملها في شعره الذهبي وهي تقول:

– ما أغبى صاحبتك الكونتس تيودورا! لقد انتشيت عندما رأيت الجميع

يحيونني ويهملونها. وعندما لمس ذراعك ظهري عفوا سمعت في أعماقي شيئا يؤكد لي أنك هناك. والتفت فإذا بي أراك، أتدري لماذا هربت؟ لأني خشيت ألا أقاوم رغبتي في التعلق بعنقك أمام الملأ.

– إني أغبطك لأنك تستطيعين التعبير عما في نفسك أما أنا فقلبي متقلص، وأود لو بكيت ولكني لا أستطيع. لا تجذبي يدك، فإنه يبدو لي أنني جدير أن أمكث طول حياتي أنظر إليك هكذا سعيدا مسرورا.

– أوه! أعد هذا على مسمعي أيها الحبيب

– وما قيمة الكلمات؟

وسقطت من عينيه دمعة حارة على يد بولين.

وقالت لولين:

– هل حقا أن هذه النفس الجميلة. وهذا النبوغ الجميل وهذا القلب الذي أعرفه جيدا، كل هذا حقا لي كما أي لك؟

– إلى الأبد يا مخلوقتي الرقيقة، ستكونين زوجتي وملاكي الحارس، إن وجودك كان دائما يبدد أشجاني وينعش نفسي.أما الآن فابتسامتك الملائكية طهرتني، وبدأت حياة جديدة، ولم يعد الماضي القاسي وحماقاتي الكئيبة إلا من قبيل أضغاث الأحلام.فأنا بقربك إنسان طاهر، أتنسم هواء السعادة.

فهتفت بولين نشوة رائعة:

– فليأت الموت في أي وقت شاء، فإني قد عشت .. رفاييل! لا ينبغي أن

تطأ قدم هذه الحجرة العزيزة

– حقا، ينبغي أن يسد الباب وتوضع شبكة من الحديد على الكوة بعد أن نشتري البيت. ولكن يجب أن نذهب الآن، أين تقيمين يا بولين؟

– في شارع سان لازار. وأنت؟

– في شارع فارين.

– ما أشق هذا البعد إلى أن ...

– ولكننا لن نفترق أكثر من خمسة عشر يوما.

– فعلا. ولكني أستكثرها إلى أن نتزوج!

وقفزت وصفقت بيديها كالأطفال ثم وضعت أصبعها في فمها:

– إني فتاة عاقة. لم أعد أذكر أبا ولا أما، أتدري يا عزيزي أن والدي مريض جدا منذ عاد من بلاد الهند؟

ونظرت في ساعتها ثم صاحت:

– الساعة الثالثة؟ يجب أن أكون في البيت في الساعة الرابعة فأنا المديرة التي تتولى كل شيء هناك. ووالدي يحبني جدا ، وهو الذي ألح أن أذهب إلى المسرح الإيطالي أمس. ستأتي لتزوره غدا، أليس كذلك؟

– هل تسمح سيدتي المركيزة دي فالنتان فتشرفني بقبول يدي؟

– يجب أولا أن آخذ مفتاح هذه الحجرة. أليست هي قصرنا يا كنزي؟

– بولين! قبلة أخرى؟

– بل خذها ألفا ... رباه ... هل ستكون دائما هكذا؟ أخالني في حلم.

وهبطا السلم على مهل وذراعاهما متشابكان وخطوتهما متحدة، على إيقاع قلب واحد وهناء متحد، إلى أن وصلا إلى ميدان السربون حيث كانت عربة بولين في انتظارها.

– أريد أن أذهب أولا لديك، كي أرى حجرتك ومكتبك فأجلس إليه حيث تجلس، كي نعيد الأيام الخوالي.

ثم قالت تخاطب الحاجب المرافق للحوذي:

– سأذهب أولا إلى شاعر فارين قبل أن أعود إلى البيت. فقل لجورج يستحث الخيل كي أتمكن من العودة للبيت قبل الرابعة.

وفي قصر المركيز راحت تقفز كالعصفور فرحة بكل تحفة وكل قطعة من الأثاث. تجلس هنا وترقد هناك فرحة بتلك الأعاجيب البديعة التي تنم عن ذوق مترف، ثم انتزعت نفسها على مضض لتصل في موعدها، وصحبها فالنتان إلى باب قصر آل جودان، كي يفارقها أقل مدة ممكنة، ثم عاد مثقل القلب بكنوز من الهناء ليس من نصيب البشر أن يحملوا ما يزيد عليها الحياة الدنيا.

ولما جلس في مقعده الوثير المعهود بجانب النار راح يفكر في الكيفية المفاجئة التي تحققت بها جميع أمانيه. فخطر له خاطر غاص في قلبه كالخنجر. ورفع عينيه إلى الطلسم، فإذا به تقلص قليلا منذ الظهر، فأطلق سبابا بشعا، وتناول الفرجار ليقيس تلك المسافة ثم صاح:

– مسكينة بولين! ليس أمامي على هذا المعدل سوى شهرين.

ثم راحت مسامه جميعا تنضح بالعرق البارد فجأة، وتقلصت أصابعه على جلد الفرا وهو يصيح:

– ما أحمقني!

ثم أخذه واخترق الحديقة، وألقى به في قاع بئر وعاد يتنفس الصعداء:

– فلتذهب هذه الخزعبلات جميعا إلى جهنم.

ثم أطلق رفاييل لنفسه العنان وعاش مع بولين قلبا لقلب..وأمام عقبات غير منتظرة تأجل إعلان الزواج إلى أوائل مارس، فكانت هذه الفترة فرصة نادرة يتبادلان فيها دراسة طباعهما، فازدادا على ذلك الدرس تحابا ورقة، بل وحياء وتورعا. فلم يعكر سماء حبهما غمام. لأن رغبة أحدهما كانت كأنها القانون المطلق عند صاحبه ، ولما كان الحب لم يدع في نفسيهما بقية من أمنية وراءه، أحسا بهدوء الغنى والطمأنينة. وخلت صلتهما من النزوات.

وبعد الزواج جعل رفاييل وبولين يفران من المجتمع، فازدحام المجتمع كان يثقل عليهما. أما خلوتها وعزلتهما فكانت جميلة، أنيسة، خصبة!

وكان الحاسدون يرونهما كل مساء أما في المسرح الإيطالي أو في الأوبرا. وشغل الناس بهما وبالتقول عليهما فترة من الوقت.

ولكن استمرارهما في خطة الاعتكاف وعدم الاكتراث لما يقال، أخرس الألسنة، وسرعان ما شغلت باريس الناس بجدية غير أمر هذين العاشقين.

وفي ذات صباح مشرق يذكر أهل باريس بالربيع، جلست بولين ورفاييل لتناول الطعام في مقصورة من مقاصير الحديقة حافلة بالأزهار، وكانت أشعة الشمس تنفذ من أغصان الأشجار النادرة فتدفئ الجو، والعيون تعكس في مرح ما يتبدى من المفارقات البهيجة بين ألوان الأزهار والثمار، ورائحة الكاميليا والليلاس تتم للزوجين الشابين سكر حواسهما وسط هذا الإطار البديع من جمال الطبيعة وشبابها، فكان رأسيهما الورديتين زهرتان من نوع نادر نبتتا عفوا بين زهور النرجس والورد البنغالي. ومن تحت أقدامهما حصيرة فارسية ملونة بألوان تتفق في تألقها مع تألق الربيع الباكر. وبين يديهما قطة فارسية جذبتها رائحة الطعام فقفزت فوق المائدة وراحت تعلق في طبق قطرات القهوة واللبن التي صبتها لها بولين.

وجعلت بولين تعابث رفاييل وتسقط الصحيفة التي كان يقرأها من يده. فيلتقطها من جديد ويتصنع القراءة وهو يراقب زوجته خلسه، حتى إذا عاودت الكرة ضبطها وعاقبها وهو يتصنع التقطيب بقبلة طويلة تتكسر لها أجفانها إلى أن تنبههما القطة بموائها الضعيف إلى شيء من الاحتشام في حضور الضيوف.

كان كل شيء على الجملة يوحي بسعادة صافية خالية من الهموم ومن القلق. وكان شعر بولين غير المنتظم يروي قصة طويلة لا تجسر على روايتها الكلمات. فلا عجب إذا نسى رفاييل أخبار السياسة وترك بولين تطوي الصحيفة وتعبث بأصبعها في شفته السفلى.

– الحق أني أشعر بالغيرة من هذه الصحيفة. وهل لست ترى من الجرح

لكبريائي أن تهتم وأنا حاضرة بتصريحات سفير الروسيا؟ وأن تفضل هذيان القيصر نقولا على كلمات الحب ونظرات الهيام؟

- إني في الحقيقة لم أكن اقرأ. بل أتصنع القراءة لأملأ عيني منك وأنت لا تشعرين. كما أنت فاتنة.

وأوشكت هذه العبارة أن تنتهي إلى قبلة أخرى، لولا أن سمعت خطوات حذاء ثقيل في نعله قطع من الحديد فوق الحصباء، وكان القادم هو البستاني الذي تنحنح أكثر من مرة قبل أن يدخل.

- عفوك يا سيدي المركيز لهذا الانزعاج لك ولسيدتي المركيزة، ولكن أحببت أن آتيكما بشيء غريب أعتقد أنه من قبيل الطرف النادرة التي تثير الاستطلاع. لأني لم أر مثيلا لهذا الشيء في حياتي .

- وما هي يا صاحبي؟

- كنت أستخرج – ولا مؤاخذة – دلوا من الماء من البئر.

فخرج فيه هذا النبات البحري الغريب! ها هو! ولابد أنه تعود الحياة في الماء، لأنه عندما أخرجناه لم يكن مبتلا ولا رطبا. بل كان جافا كالخشب، ولا رخاوة فيه. ولما كان سيدي المركيز أعلم مني بكثير. فقد فكرت أن احضر إليه هذا الشيء. فربما كان مما يثير اهتمامه. تفضل يا سيدي.

ثم قدم البستاني لرفاييل "جلد الفرا" الذي لم يعد يتجاوز حجمه ست بوصات مربعة. وبمشقة قال رفاييل.

- شكرا لك يا فانيير. إنه فعلا شيء طريف.

ولكن بولين صاحت:

- ماذا بك يا حياتي؟ إنك شاحب الوجه جدا؟

- اتركنا وحدنا الآن يا فانيير

- إن صوتك يفزعني يا حبيبي، أنه متغير جدا. ماذا بك؟ بماذا تشعر؟ هل تشعر بألم؟ أدركني يا جوناثاث بطبيب.

- يا بولين العزيزة، اسكتي. ولنخرج من هنا. كل ما هناك أن بالقرب منا زهرة يضيق صدري لرائحتها.

فقفزت بولين كالنمرة الكاسرة وانقضت على الشجرة البريئة فاقتلعتها ثم طوحت بها بعيدا، ثم عادت إليه فاحتضنته في حنان ولهفة وهي تقدم له شفتيها القرمزيتين في دلال.

- آه يا حبيبي! لقد شعرت عندما رأيت لونك يكفهر أنني لا يمكن أن أعيش بعدك. فحياتك هي حياتي. اضغط بيدك يا رفاييل على ظهري فإني لم أزل أحس هناك بقشعريرة الموت. إن شفتيك محمومتان. أما يدرك فبادرة، ماذا بك أيها الحبيب؟

- يا لك من مجنونة.!

- وهذه الدمعة؟ ما سببها؟ كلا لا تمسحها ودعها لي أرشفها

- بولين! إأنك تحبينني أكثر مما ينبغي

- إن شيئا خارقا للمألوف يحدث لك يا رفاييل. أصدقني القول يا رفاييل. فلن أستريح حتى أعرف سرك. أعطني هذا الشيء .

- ومدت يدها فتناولت الطلسم. وصاح الشاب وهو يحملق فيه:

- أنت قاتلي! أنت جلادي!

فصاحت بولين وهي تلقي من يدها رمز القدر المحتوم:

- ما أشد تغير صوتك يا رفاييل!

- أتحبينني؟

- وهل هذا سؤال؟

- إذن اتركيني. أذهبي عني!

ولما صار رفاييل وحده جعل يصيح مناجيا نفسه كالمجنون:

- ماذا؟ هل في عصر النور الذي عرفنا فيه الماس ليس إلا بلورات من الكربون. وأصبح كل شيء يفسر على ضوء العلم، حتى أن البوليس يقدم على جر أي مسيح جديد إلى المحكمة ولا يتردد في عرض معجزات على أكاديمية العلوم، أفي هذا العصر يكتب على أنا المتعلم المثقف أن أؤمن بهذه الخرافة وأن تكون هي المالكة لزمام حياتي؟! كلا! لن أصدق أن الكائن الأعظم يبيح لنفسه أن يتلهى بتعذيب مخلوق مثلي على هذه الصورة. لا بد أن أنهض الآن وأذهب بهذا الشيء الملعون إلى أكبر علماء العصر ليروا فيه رأيهم وأجد عندهم من التعليل الواقعي ما ينفض عندي إغلال هذا الرق".

وسرعان ما كان يخترق السوق المخصص لتجارة النبيذ بين آلف من البراميل الضخمة، إلى أن وقف في موضع أشبه بحديقة الحيوان في قسم الطيور الاستوائية فهناك مئات من أقفاص الطيور المتباينة الألوان تلمع تحت أشعت الشمس، وترسل أصواتا حادة وهي ترف بأجنحتها. وعندئذ قال أحد المارة:

- نعم هنا يا سيدي يقيم العلامة لافريل. الحجة في علم الحيوان.

ورأى المركيز عندئذ رجلا قصير القامة مشغولا إلى أقصى حد بملاحظة بطتين من النوع الصيني. وهو رجل في منتصف العمر تدل ملامحه على طيبة القلب وحب الناس والمجاملة. يكثر من هرش رأسه كي يستحث عقله على التفكير. ولم يسمع رفاييل المطبوع على حب العلم والعلماء إلا أن يعجب بهذا الرجل الذي أجرى تجارب كثيرة لتحسين نسل الخيل يعترف بها كل من يهتمون بجياد السابق، وأعجبه منه أيضا هذا الغرام بالعلم في إخلاص. لا يدع له مجالا للتفكير في شيء من أمور الدنيا. وبعد تبادل كلمات المجاملة التي جرى بها العرف طرأ لرفاييل أن يتملقه بالثناء على بعض ذلك البط المختلف الأجناس، فلمعت عينا الرجل وانطلق نصف ساعة بفتح الأقفاص ويتناول هذا الطير أو ذاك ليشرح له مزاياه النادرة ومواضع الجمال فيه. وأخيرا تنبه لنفسه فقال:

- أخشى أن أكون قد صدعت رأسك. ولكني على كل حال تحت تصرفك يا سيدي المركيز.

ثم أدخله إلى بيت لطيف يقع بالقرب من ذلك المكان في شارع

بوفون. وهناك أخرج رفاييل جلد الفرا من جيبه وعرضه عليه فأخرج العلامة عدسته المكبرة وراح يفحص الطلسم، ثم قال:

- أعرف هذا النوع. وأعتقد أن هذه القطعة كانت تستخدم بطانة لصندوق. فقد كانت هذه عادة الأقدمين في استخدام جلد حمار الوحش. أما الآن فيستخدمون أنواعا أخرى لتبطين صناديق المجوهرات. ولا سيما جلد حوت معين يعيش في البحر الأحمر

- أرجوك يا سيدي. ما دمت قد تكرمت ...

- ولكن هذا النوع شيء آخر، فذلك الحيوان يعتبر من الأعاجيب النادرة في علمنا، والاهتمام به كبير.

- ولكن أي شيء هو يا سيدي؟

- هذا يا سيدي المركيز جلد الحمار!

- وهل جلود الحمير شيء نادر غريب؟

- عفوك يا سيدي أنه حمار ليس كالحمير، يوجد في بلاد إيران نوع نادر جدا من هذه الفضيلة. كان يربيه التتر الأقدمون. وتروى عن خصائصه أقاويل كثيرة لا سبيل اليوم إلى التحقق منها، وكي أثبت لك مبلغ ندرة هذا النوع أقول لك أنه لا يوجد نموذج للفرا – وهو اسم ذلك النوع من حمير الوحش – في متحفنا القومي. وإياك أن تعتقد أن الفرا يشبه حمير الوحش التي تعرفها في شيء. فعينه كأنها مرآة تعكس كل شيء، ولعل هذا هو السبب في أن القدامى ينسبون للفرا قدرة

على التنويم المغناطيسي. أما جلدة فأكثر أناقة وأشد لمعانا من جلد أجمل جيادنا العربية أو الايرلندية. وفيه ترقيش قاتم في نقط أو في خطوط. ووبره ناعم متموج رخص. وبصره يوازي في دقته وأحكامه بصر الإنسان. وهو أكبر قليلا من أجمل حميرنا المستأنسة. أما صفاته الخلقية فعظيمة جدا، وأول هذه الصفات الشجاعة الخارقة. فإذا داهمه حيوان متوحش من الضواري دافع عن نفسه دفاعا رائعا. وأما سرعة مشية فلا يمكن مقارنتها إلا بسرعة الطير في تحليقها. فلا شك أن الفرا يا سيدي أسرع بكثير من أسرع جياد السباق العربية الفارسية، فهو ملك حيوانات الشرق، ولهذا تربط الأساطير هناك بينه وبين سليمان الحكيم. وأؤكد لك أن العثور على فرا حيا أو محنطا معناه الحصول على ثروة كبيرة. إذ من المستحيل اللحاق به حين يجري بين الصخور أو يتسلق الجبال. وأعتقد أن الأساطير القديمة التي تروي عن خيل لها أجنحة ربما نبتت أصلا من منظر الفرا وهو يعدو وكأنه يطير.وهذه القطعة من الجلد يسرني أن أهنئك عليها لأنها من جلد الفرا.

- أشكرك كثيرا يا سيدي على هذا البحر المتلاطم من المعلومات التي أتحفتنا بها. ولكن أردت أن أقول أن هذه القطعة من الجلد كانت في الأصل في حجم الخريطة الجغرافية التي أمامنا. ومنذ ثلاثة شهور أخذت في التقلص بشكل ظاهر وهذا في الواقع ..

- فهمت فهمت. فأعراض الانحلال شيء طبيعي في جميع البقايا الحيوانية. وللتغيرات الجوية علامة كبيرة بهذه الظواهر.

- التغيرات الجوية؟ كيف؟

- المعادن نفسها تتمدد وتتقلص بصورة ملحوظة، والعلم كما تعلم واسع. والحياة الإنسانية قصيرة جدا. وليس في وسعنا أن نتبجح وندعي معرفة جميع الظواهر التي في الطبيعة.

- هل أنت متأكد يا سيدي أن هذه القطعة من الجلد تسري عليها القوانين الطبيعية العادية في علم الحيوان. وبذلك يمكن أن تتمدد .

- هذا جائز جدا! يا للشيطان!

وكانت هذه الدهشة نتيجة لإقدامه على مط الجلد بيديه.

- لا بد من استخدام أداة غير اليد، وعلى كل حال في استطاعتك أن تذهب أن شئت إلى زميلي بلانشت أستاذ الميكانيكا المشهور، ولا شك أنه سيجد وسيلة يخضع بها هذا الجلد ويطريه فينبسط.

- آه يا سيدي! إنك بهذا تنقذ حياتي!

ووقف لافريل المسكين في وسط مكتبه مفتوح الفم والعينين من الدهشة بعد أن تركه المركيز وهرول منصرفا بتلك الصورة.

البحث عن لجام

كاد رفاييل أن يجن من السرور، وهو في طريقه إلى العلامة بلانشت. فجعل يصيح محدثا نفسه وهو يفرك يديه.جلد حمار؟ لنصنع لك لجاما عند بلانشت أيها الحمار، فأركبك بعد أن ركبتني!

كان بلانشت رجلا طويل القامة بارز العظام، مثال الشاعر في الميدان العلمي، تجده دائما في سبحات عميقة، مشغولا بالنظر في هاوية مالها من قرار. اسمها "الحركة". وهو من الطراز الذي أصابته لوثة المعرفة، يعيش غير مكترث للترف والمجتمع، قد يقضي يوما بطوله يدخن بإفراط سيجارا خامدا وهو لا يشعر بالفرق.

أو يدخل بعد إلحاح صالونا في قصر لتناول العشاء أو الشاي، وقد زوج أزرار صداره الأبيض في غير عراها الشرعية!

ولكن الرجل من أبرع العلماء في الميكانيكا ومن كبار المخترعين لآلات تدهش الناس بسهولة تركيبها وقوة نشاطها. فيبتسم العالم المتواضع عندما يرى دهشة الناس ويقول كالمعتذر أو كالمصحح.

ماذا صنعت؟ إني لم أخلق شيئا، لأن الإنسان لا يخلق الطاقة.فالطاقة كلها موجودة في الطبيعة. وكل مهمة العالم أن يوجهها مقلدا أساليب الطبيعة.

وعندما دخل رفاييل على ذلك الميكانيكي وجده راكعا على ركبته

يفحص قطعة من آلة غريبة التركيب أثناء دورانها، فلما نبهه رفاييل قال له:

- مرحبا بك يا سيدي. أنا في خدمتك؟ كيف صحة الوالدة؟

فابتسم رفاييل وأدرك شرود ذهن الرجل، وتلطف في توجيه انتباهه إلى موضوع الطلسم الذي حضر من أجله. قائلا:

- ربما ضحكت من سذاجتي يا سيدي العالم. ولكن لن أخفي عنك شيئا، فهذه القطعة من الجلد يبدو لي أنها ذات قدرة خارقة على المقاومة، بحيث لا توجد وسيلة لإخراجها من الانكماش إلى الامتداد.

فقلب بلانشت شفتيه ازدراء وقال:

- ها ها! إنكم هكذا يا أبناء الذوات، تتناولون المسائل العلمية دون دراية، وإنكم لتذكرنني بذلك الرجل الطيب أنه كان دوقا فيما أظن ، الذي أقترب من العلامة للاند بعد أن أطلعه على منظر الكسوف في المرصد، وقال له: "كان هذا شيئا طريفا يا سيدي، فأرجو الإعادة حتى تتمكن السيدات من المشاهدة.

- إني طبعا لا أطلب منك شيئا من هذا القبيل ...

- ما هي النتيجة التي تريد أن تصل إليها؟ إن هدف الميكانيكا هو تطبيق قوانين الحركة الطبيعية أو إيقافها. أما عن الحركة في حد ذاتها فأعترف لك بكل تواضع أننا عاجزون عن تعريفها، وكل ما هنالك أننا نحن العلماء لاحظنا حدوث بضع ظواهر بصورة متواترة في السوائل والأجسام الصلبة، وباستخدام مولدات كافية لهذه الظواهر نستطيع

أن ننقل الأجسام بسرعة معينة، وأن نقذفها وأن نقسمها أجزاء لا نهاية لها، فالعلم يا سيدي يقوم على مشاهدة الواقع، وآلاتنا الحديثة تطبق قوانين العلم، ففي استطاعتنا أن نزيد السرعة على حساب الطاقة، وأن نزيد الطاقة على حساب السرعة، ولكن لا تسألني ما هي الطاقة وما هي السرعة. فعلمنا المحدود عاجز عن الإجابة عن هذا السؤال. فالحركة في حد ذاتها قوى خارقة. والإنسان لا يستطيع اختراع القوة، وإنما هو يتناولها من الطبيعة ويستخدمها. وكل شيء في الوجود حركة، فالحركة هي جوهر الطاقة، والتفكير نفسه حركة، والطبيعة قائمة على الحركة.

والموت أيضا حركة نجهل نهايتها، بل ربما كانت القدرة الإلهية نفسها هي جوهر الحركة، ولعل هذا يفسر لنا لماذا ظلت الحركة سرا مغلقا ليس له تفسير. وإلا فخبرني منذ الذي لمس أو فهم أو قاس حركة؟

إننا لا نعرف إلا آثارها أما هي فلا نراها. ولا ندري من أين تنبع ولا ما هو مبدؤها أو غايتها. أنها فينا وحولنا ولكنها بعيدة عن مداركنا. فالحركة شيء واضح من حيث الأثر الواقعي. ولكنه شيء غامض جدا في حد ذاته. ويقال أنه لا حركة من غير فضاء. ولكن ما هو الفضاء؟ إننا لا ندركه إلا بالقياس إلى الحركة. ومن غير هذا ...

- أنا شاكر لك يا سيدي غزارة علمك الذي لا تضن به على ولكني مهتم جدا بتطبيق علمك في حدود هذا الجسم بالذات.

- طبعا طبعا! ابن ذوات! العلم ليس غاية ولكنه مجرد وسيلة مطية

ركوبة!

- آه كالحمار مثلا؟

- لا بأس، إن الأساس العلمي للتأثير في أي مادة مجهولة تريد أن تخضعها لقوة مجهولة هو أن تدرس أولا هذه المادة وتعرف ما هي المادة معروفة، جلد نوع منقرض من الحمير.ولكن القوى التي يمكن أن تطبقها عليها من حيث الميكانيكا لا حصر لها ...

- إني أريد يا سيدي ضغطا من أي نوع يكون من القوة بحيث تنبسط هذه القطعة من الجلد إلى أقصى حد، إلى ما لا نهاية.

- ها ها يا ابن الذوات! أعلم أن هذه المادة محدودة، أي لها نهاية، فلا يمكن إذن أن نجعلها تمتد إلى ما لا نهاية. مفهوم.

- مفهوم! إلى أقصى حد. بقدر الإمكان. هل هذا ممكن؟

- طبعا ممكن .. ولكن أنبهك إلى أن الامتداد سيكون على حساب السمك. فإذا امتدت أكثر مما يجب انقطعت.

- بل أعطيك مليونا كي تجعلها تمتد إلى آخر حد بحيث لا تنقطع

- كأني أسرقك لو قبلت. فهناك آلة بسيطة جدا تستطيع أن تسحق أي شيء وتطرقه وتسحبه في صفائح رقيقة، أيا كان هذا الشيء. إن وضعنا تحت هذه الآلة إنسانا بملابسه وحذائه وقبعته وجواهره جعلت منه فرخا من الورق، أعني ورق اللف، لأنها لا تستطيع أن تزيل الألوان وتجعله ورقا أبيض.

- يا للآلة الجهنمية. أدركني بها!

وبثقة كاملة وضع بلانشت قطعة الجلد السميكة تحت آلة الطرق ثم أدار العجلة. بيد أن القطعة الجهنمية خرجت من الطرف الآخر على حالها. كانت لها قدرة على الروغان كي تعود سيرتها الأولى!

وسقط فك رفاييل من وقع الخيبة وتفصد جبينه عرقا، ولم يكن بلانشت أقل منه دهشة، إلا أنه تماسك وعبث قليلا بذقنه ثم قال:

- لم يعد أمامنا إلا أن نذهب غدا لدى زميلي الميكانيكي البارع شبيجالتر. فإنه أخترع أخيرا آلة رائعة لها قدرة خارقة على الضغط، بحيث تستطيع أن تكبس ألف حزمة من التبن داخل قبعة.

- إلى الغد إذن يا سيدي. تذكر أن الأجر مليون!

وفي الطريق إلى داخل ورشة شبيجالتر جعل بلانشت يبشر رفاييل بالنتائج الباهرة المضمونة لتلك الآلة. وكان شبيجالتر هذا شابا في مقتبل العمر يدير ورشة مترامية انتظرت فيها عشرات الأكوار المشتعلة. والشرر يتساقط هنا وهناك كأنه مطر من اللهب بين طوفان من المسامير المحماة ومحيط من الدوافع والصمامات. وكانت رائحة الفحم تملأ الصدر، وهدير الآلات والصفارات والمطارق يكاد يصم الآذان.

وقاد شبيجالتر ضيفينه وسط هذا الزحام إلى قاعة فسيحة مستقلة هادئة، توسطها الآلة المقصودة الهائلة الحجم. وجعل بلانشت يربت على جانبها ويقول للمركيز:

- إنك لو أردت هذا الذراع سبع مرات بشدة، لاستطعت أن تحول لوحا من الفولاذ إلى عشرات الآلاف من الشظايا التي لا تزيد على حجم الإبر.

وقدم بلانشت جلد الفرا إلى شبيجالتر. فدسها بنفسه بين أسطوانتين من البلاتين في ثقة العارف بقدرة صناعته. ثم حرك الذراع بعنف، وفجأة صرخ بصوت كالرعد وهو ينبطح على الأرض

- انبطحوا جميعا وإلا هلكنا!

وحدثت فرقعة هائلة في جنبات الورشة. فإن الماء الذي داخل الخزان حطم جدران الآلة. واندفع كالنافورة بقوة لا يمكن تقديرها.ولحسن الحظ أن هذه النافورة اتجهت نحو الحائط فثقبته على الفور ونهض الثلاثة مسرعين نحو الطلسم. وأخذ بلانشت يقلبه.

- إنه سليم كإنسان عيني. لم يحدث فيه أي تغير! هل كان في آلتك يا أستاذ شبيجالتر جسم غريب؟

- كلا كلا. فأنا أعرف آلتي جيدا، وأرجو السيد المركيز أن يأخذ هذا الجسم بعيدا عنا، فإن به شيئا شيطانيا!

وكأنما جن جنون الشاب الألماني الأصل، فتناول مطرقة ضخمة وطرح الجلدة فوق السندان، وبقوة الأبالسة طرقها طرقة عاتية، ثم رفع بلانشت الجلدة المستعصية وقلبها في يده بإعجاب:

- يبدو أنها لم تمس. ليس بها من الطرقة أي أثر!

وتجمع رؤساء العمال. وثار غضب واحد منهم فتناول الطلسم ودسه في الفحم المشتعل. والجميع من حوله في شبه دائرة ينتظرون النتيجة. فلما سحب الطلسم بالماشة بعد عشر دقائق وجد على حاله. بل إنه كان باردا لا أثر فيه للحرارة.فلما رأى العمال ذلك ولوا هاربين، وصاح رفاييل يائسا:

– إن في هذا الشيء عنصر شيطاني ولا شك، هل نفذ السهم إذن ولم يعد في استطاعة أي قوة بشرية أن تمنحني يوما واحدا؟

وعندئذ صاح بلانشت:

– أين كان عقلي حين اقترحت عليك آلة السحب والطرق؟ هذه المسألة من اختصاص الكيمياء، يجب معالجة هذا الجسم بالأحماض. هيا نذهب إلى يافث الكيماوي.

وسرعان ما كانت جياد عربة المركيز تنهب الأرض إلى معمل يافث. ودخل عليه بلانشت فوجده جالسا يرقب تفاعلا في أنابيب زجاجية.

–كيف حالك يا صديقي؟ وكيف حال الكيمياء؟

– نائمة! لا جديد

– إذن خذ هذا الشيء وابذل غاية استطاعتك في تحليله. وإن استطعت أن تصل إلى استخراج شيء من عناصره سأسميك أله الكيمياء، وإني أحذرك إن هذا الجسم عندما دخل آلة الكبس المائية حطمها.

فظهر الفرح الشديد على وجه الكيماوي الكهل وصاح:

- أعطينه هداك الله! ربما كان عنصرا بسيطا نحظى بفضل اكتشافه وتسجيله في الأكاديمية ، إنه يا سيدي ليس سوى قطعة من جلد حمار منقرض .. سيدي! تأكد أنني لا أمزح!

فتناول البارون يافث الطلسم وتذوقه بلسانه الذي دربه على تمييز الأملاح والأحماض والقلويات والغازات، ثم قال:

- ليس له طعم! فلنجرب الأحماض

جرب البارون كل الأحماض التي اشتهرت بتأثيرها على الخلايا الحيوانية بيد أن الجلد لم يتأثر بشيء منها، فصاح الكيماوي:

- ليس هذا جلد فرا كما تزعم، وإلا لكان تأثر. سنجربإ الأشياء التي تؤثر في المعادن. ولا سيما البوتاس الأحمر ...

وذهب الرجل فأحضر وعاء وضعه على النار ووضع فيه البوتاس الأحمر، ثم التفت رفاييل وقال:

- هل يسمح لي المركيز أن أقطع جزءا صغيرا من هذا الجسم الغريب لأجري عليه التجربة؟

- تقطع يا رجل! نحن نريد تكبيره لا قطعه.. حاول على كل فلا أظنك ستفلح!

فسلم البارون الجلد لمساعد المعمل بعد أن تبين له المقدار الصغير الذي يجب أن يقطعه. ولكن المساعد عاد بعد قليل وقال:

كسر موسان من الصلب ولم تخدش هذه الجلدة!

وجرب البارون تأثير شحنة كهربائية قوية من غير جدوى. فعمد إلى عامود فولتا الذي يصنع الصواعق. ولكن الصواعق فشلت وارتدت على الطلسم!

وكانت الساعة قد بلغت السابعة مساء من غير أن يشعروا بمرور الوقت الذي قضوه في محاولات علمية عنيفة متعاقبة، كان آخرها كلورور الآزوت. ولم يفلح شيء في خدش الجسم، فصاح رفاييل:

- هلكت! معنى هذا أنني سأموت!

ونظر إليه العالمان مبهوتين ولم يفهما مراده. ولكنهما أهتما بناحية أخرى، إذ تنبه بلانشت إلى خطورة الموقف علميا، فقال لصاحبه:

- فلنتجنب رواية هذه المغامرة لأعضاء الأكاديمية. وإلا سخر منا زملاؤنا. واتهمونا بالخوف والجنون.

وجعل كل واحد ينظر إلى الآخر وكأنه يتهم عقله وحواسه، ذلك أن هذين العالمين كانا أشبه بأثنين من شهداء المسيحية الأوائل خرجا من قبريهما بعد أن عجزا عن العثور على الاله في مملكة السماء!

فالعلم هو إله هذين الرجلين. ولكن أين هو العلم؟ لقد أثبت عجزه! والأحماض المهلكة لم يكن لها تأثير يتجاوز تأثير الماء القراح! والصواعق الكهربائية لم تكن إلا فقاعات صابون!

وفي طريق عودته إلى الدار، كان فالنتان لهبا لغضب فظيع، وإن كان ساكنا في الظاهر. لم يعد مؤمنا بأي شيء، فأفكاره تتضارب وتدور كأفكار

أي رجل يكون أمام واقع مستحيل في نظر العقل.

كان مستعدا أن يصدق عن طيب خاطر بوجود عطب في آلة شبيجالتر الكابسة، ولم يدهشه عجز العلم وعجز النار، ولكنه فزع حقيقة أمام نعومة الطلسم ومرونته حين يبعث به، حتى إذا سلطت عليه جميع وسائل التدمير المتاحة للإنسان تصلب وصمد. هذا الواقع الملموس هو الذي سبب له الدوار.

- لا شك أني مجنون. وبالرغم من عدم تناولي شيئا من الطعام منذ الصباح، لا أشعر بجوع أو عطش، بل بجذوة نار.

ولما دخل قصره أودع الطلسم الإطار الخاص به بعد أن رسم بالقلم الأحمر خطا حول مسطحه الحالي. ثم جلس في مقعده..

الساعة الثامنة؟ لقد مر هذا النهار كأنه الحلم. ووضع رأسه على يده اليسرى، ثم استغرق في أخيلة قاتمة، شبيهة بالخواطر التي يأخذها معه إلى القبر المحكوم عليه بالإعدام.

يا لبولين المسكينة! هناك للأسف هوات لا قدرة للحب على اجتيازها، بالرغم من قوة أجنحته ...

وفي تلك اللحظة سمع بوضوح تام زفرة مكتومة. وعرف بغريزة القلب العاشق أن هذا نفس بولين، فقال لنفسه:

- هذا قراري ولو كانت هنا لتمنيت أن أموت بين ذراعيها.

ورن صوت ضحكة صريحة مرحة، فالتفت بوجهه نحو السرير فرأى من

خلال ستائره الشفافة وجه بولين ضاحكة كما يضحك الطفل السعيد لنجاح لعبة من ألعاب عبثه البريء. وكانت خصلات شعرها الجميل متناثرة في موجات لا عدد لها فوق كتفيها، فكأنها نوع نادر من الأزهار يجمع بين الورد البنغالي الأصفر والزنبق.

ولما تبينت أنه عرف مكمنها قالت:

- لقد أغويت جوناثاث، أليس هذا السرير ملكا لي ما دمت امرأتك؟ لا تلمني يا عزيزي فإني لم أفكر إلا في النوم بقربك كي أفاجئك، فأصفح عني.

ثم قفزت من الفراش في خفة القطة، وبدت كاملة الإشراق في غلالة صريرها الموصلي، وجلست فوق ركبتيه وشبكت يديها حول عنقه، وقالت له، وقد كدرت صفاء جبينها سحابة من القلق:

- عن أي هاوية كنت تتحدث يا حبيبي؟

- عن الموت

- إنك تؤذيني بهذا الكلام، فهناك أفكار معينة لا نستطيع نحن النساء أن نقف عندها لأنها تقتلنا، فهل هذا من شدة الحب، أو من قلة الشجاعة؟ لست أدري وضحكت بعد ذلك..

- ثم استطردت:

- الموت لا يفزعني ما دمت معك، ما رأيك أن أموت معك غدا صباحا، ونحن نتبادل قبلتنا الأخيرة؟ إن ذلك يكون من دواعي السعادة. ومع

ذلك كم أتمنى أن أعيش مائة سنة أخرى في لحظة واحدة من لحظات الحب! فما قيمة عدد الأيام. أن استطعنا في مدى ليلة، أو مدى ساعة، أن نستنفد حياة كاملة من الطمأنينة والسلام والحب؟

- معك حق، إن السماء تتكلم بفمك الجميل، فأعطينه كي أقبله، ولنمت .

فاختزلت ضحكتها لتمنحه تفرها قائلة:

- أجل لنمت!

وفي نحو الساعة التاسعة صباحا كان ضوء النهار يخترق المصراع الخشبي فتخفف من حدته الستائر الحريرية، ومع هذا كان ذلك الضوء كافيا لإظهار ألوان البساط الغنية الدافئة، والأثاث الفاخر الوثير في الحجرة التي رقد فيها الحبيبان.

وحط على حاجز الشرفة بلبل راح يصدح ويصفق بجناحيه، فاستيقظ رفاييل، واستأنف خواطره التي كانت مدار أحلامه.

إن الموت لا يأتي عفوا، بل ينبغي أن يسبقه انحلال ما في ذلك الجهاز المكون من اللحم والعظام، والذي تسوسه إرادتي. واسمه البدن، إن الأطباء لابد أن يعرفوا، وفي مقدورهم أن يخبروني هل أتمتع بصحة جيدة، أم أن العلة تسري في جسمي؟

وراح يملا عينيه من زوجته النائمة بجواره وقد أحاطت رأسه بذراعها، لتعبر له في نومها كما في يقظتها عن أرق مشاعر الحب.

فبدت بولين وهي راقدة على جنبها ووجهها الجميل البريء إلى جهته، وكأنها تنظر إليه وتمنحه ثغرها الشهي الذي انفرجت منه الشفتان القرمزيتان وهي تتنفس أنفاسها الهادئة المنتظمة العطرة، وأسنانها الصغيرة الناصعة تزيد شفتيها الرطبتين فتنة، وبياض بشرتها أصبح في هدوء النوم أشد نصوع. فمن شأن النوم أن يجرد جسم المرأة من الافتعال في الحركات والأوضاع، وما ينتج عن ذلك من مجهود يؤثر على لون البشرة ونعومتها... هذه الصورة الرائعة حركت قلب رفاييل المفعم بالحب، فتمنى لو امتدت به الحياة إلى الأبد، كأنما أحست وهي نائمة بنظرته فوقها ففتحت عينيها.

- طاب صباحك يا حبيبي! كم أنت جميل وشرير!

يا لمسرات الشباب العاشق! إنها تبدو في صورة لا يستطيع أعظم الرسامين تصويرها، أنها صورة تستمد سحرها من الألوان ومن الحياة ومن الحركة ومن الدفء ومن العطر الذي ينتشر متن الجلود الناضرة الشابة.

- لماذا استيقظت يا عزيزتي؟
- أكنت تريدني ألا أستيقظ؟
- كنت مستمتعا بمشاهدتك وأنت نائمة ... لقد حركت قلبي حتى بكيت ...
- وأنا كذلك بكيت هذه الليلة وأنا أنظر إليك وأنت نائم. ولكن دموعي لم تكن دموع الفرح. اسمع يا رفاييل أصغ لما أقول جيدا.عندما تنام لا يغدو تنفسك صريحا، ففي صدرك خشخشة أخافتني

وسمع بوضوح زفرة مكتومة، وعرف بغريزة القلب العاشق أنها بولين .. وبين الحين والحين كنت تسعل سعالا قصيرا جافا يشبه كل الشبه سعال أبي الذي أعلم أنه مصاب بذات الصدر، وقد عرفت في صوت رئتيك بعض الأعراض الغريبة لتلك العلة، ثم إن حرارتك كانت مرتفعة. وأنا واثقة من هذا. فقد كانت راحة يدك ندية ساخنة.

وقطبت حاجبيها وسرت فيها الرجفة وهي تستطرد:

- إنك شاب في ريعان العمر أيها العزيز. ولم يزل في وسعك أن تتداوى، إن كان سوء الطالع .. كلا. ليس هناك سوء طالع. فتلك العلة يمكن شفاؤها كما يقول الأطباء ...

وطوقت رفاييل وقبلته في فمه قبلة منهومة أذابت فيها روحها.

- لا أريد أن أعمر حتى الشيخوخة، فلنمت معا في شبابنا، ولنصعد إلى السماء وأحضاننا مملوءة بالأزهار.

فتخلل شعرها بيديه وراح يؤكد لها أنه بخير وعافية، وإذا بنوبه عنيفة من السعال الرنان تنتابه، فنضح جبينه بالعرق وارتعدت أوصاله وأحس بالأمل في جبينه وفي نخاع سلسلته الفقرية وفي عروقه، ثم استلقى متهالكا ببطء على وسادته كأنما استنفدت آخر جهوده. وبولين ترمقه بنظرة ثابتة، وقد وسع الخوف حدقتيها، فظلت جامدة شاحبة صامتة.

- يجب ألا نقدم على مزيد من الحماقات يا حياتي ...

ثم غطت وجهها بيديها، لأنها لمحت شبح الموت البشع أمام عينيها، فهذه رأس رفاييل وقد غاضت منه الحيوية فبدا مثل جمجمة استخرجت من أعماق القبر ليدرس عليها طلاب الطب.وتذكرت بولين العبارة التي قالها رفاييل بالأمس وهو لا يدري أنها موجودة. فقالت تحدث نفسها في مرارة:

- حقا هناك هاوية لا يستطيع الحب أن يجتازها ، ولكن يجب عليه أن يستقر فيها طائعا راضيا .

الاستشفاء

وبعد بضعة أيام كان رفاييل راقدا فوق أريكة ساعة الضحى، ومن حوله وقف أطباء أربعة من أساطين الصناعة، وأخذ كل واحد منهم يجس بدوره نبضه، ويتسمع أنفاسه في صدره، ويسأله.

وكان المريض الذكي يتتبع أفكارهم، ويتأول إشاراتهم، وأهون الغضون التي ترتسم فوق جباههم، فهذا المؤتمر الطبي هو الأمل الوحيد الباقي له، وهؤلاء القضاة هم الذين سيصدرون حكمهم عليه بالحياة أو الموت، وكي يحتاط ويحتال للوصول إلى أصدق الآراء، استدعى الممثلين للمدارس المختلفة في فن العلاج.

وضمنت له مكانته وثروته هذا الامتياز الذي لا يتمتع به من الناس إلا القلة وسأله واحد منهم مربع الرأس طويل الوجه:

- هل تزوجت منذ زمن طويل؟
- بل منذ مدة وجيزة جدا.
- يبدو أنك أرهقت صحتك كثيرا، ويظهر أنك أسرفت على نفسك قبل الزواج، أم تراك انهمكت في أعمال عقلية باهظة؟
- جمعت على نفسي بين الشرين كلاهما، فقد قضيت ثلاث سنوات منكبا ليل نهار على عمل ضخم في الفلسفة، ثم خطر لي أن أقتل

نفسي بالفجور، كنت أسهر كثيرا وأشرب وألهو كثيرا .

فهز الطبيب الكبير رأسه، ولم يستطع أن يخفي الرضا والسرور، لأنه أفلح في التكهن بالحقيقة! فقد كان هذا العلامة رئيس المدرسة الوضعية المادية في علم الطب. والإنسان في نظر هذه المدرسة كائن محدود لا يخضع إلا لقوانين بنيته الخاصة.

ورفع هذه العلامة – واسمه بريسيه – بصره في شماتة نحو زميل له متوسط القامة أحمر الوجه ثاقب العينين وقف من بعيد يرمق رفاييل ولا يتكلم وهذا الرجل هو العلامة كامر يستوس، زعيم المدرسة الحيوية الذي يؤمن بالروح، وبالإرادة، وبالمعجزات، ويكفر بالتشريع وبعقولنا المادية المحدودة.

أما الطبيب الثالث فرجل لا يؤمن بشيء إلا الملاحظة، فهو مستعد للاعتقاد بكل ما تثبته التجربة من غير قيد أو شرط.

وبعد فترة طويلة من مراقبة رفاييل لأطبائه الذين كان رابعهم طبيبه الخاص، لم يكتشف لديهم أي عطف على أوجاعه، بل كانوا يسألونه من غير عطف جدي عليه، أو اهتمام صحيح بمصيره، فعدم الاكتراث كان يطل برأسه واضحا من خلال سلوكهم المهذب وكلماتهم القليلة، حتى لقد خيل إلى رفاييل، أن ذهنهم كان يشرد أثناء المداولة، فيفكر هذا في مريض آخر، أو في فطيرة التفاح التي أوصى بصنعها، وفكر الآخر في التجربة التي تنتظره عند حائك ثيابه.

ولما لم يصل الأربعة إلى اتفاق سريع، استأذنوا في الاختلاء بغرفة مجاورة، ولما طلب منهم أن يحضر المداولة اعتذروا.

واحتدم الخلاف بينهم حول تعليل ذلك الإعياء الذي أصيب به وكأنه مرض الشيخوخة قبل الأوان بكثير، فالكبد محتقن متضخم، والمعدة شديدة الاضطراب، وقد تآكل معظمها من كثرة القرح وكان أشدهم تمسكا برأيه هو بريسيه، الذي قال:

- واضح جدا أن عقل الرجل تداعى تحت تأثير الإرهاق المستمر، وبسبب ضعف البنية، وانحلال الجهاز الهضمي، ولابد أن المركيز واقع تحت تأثير فكرة ثابتة، تقض مضجعه ليلا ونهارا، وذلك الطلسم العجيب الشأن، الذي حدثنا به وعيناه زائغتان، هو موضوع تلك الفكرة الثابتة، التي أفسدت أعصابه وذهنه وأمعاءه، فإن استطعنا أن نقضي على هذه الفكرة الثابتة، أمكننا أن نهدئ اضطراب معدته وأمعائه، وفي هذه الحالة يكون هناك أمل في الشفاء.

ولم يلق هذا الرأي قبولا من رفيقيه، فاحتدم النقاش بينهما أكثر من ساعة، إلى أن فطنوا إلى انقضاء الوقت وتأخرهم عن عياداتهم، فكان هذا عاملا فعالا في وصولهم بسرعة إلى رأي اتفاقي.

وسرعان بعد ذلك ما خرج الأطباء الأربعة من حجرة الاستشارة، وتولى طبيب المركيز الخاص – الدكتور هوراس – حمل القرارات.

- إن هؤلاء السادة قد اجمعوا رأيهم على ضرورة الالتجاء فورا إلى تركيب دود العلق على معدة سيادتكم. مع وجوب استخدام علاج معنوي وآخر بدني، على أن تلزم نظاما غذائيا دقيقا. وتلتزم نظاما صحيا وقائيا لإصلاح اضطرابك العصبي.

وهز الأطباء الثلاثة رأسهم في وقت واحد علامة على الموافقة.

- ولهذا ينصحون فخامتكم بالإجماع أن تتوجهوا إلى أحد بلاد المياه المعدنية للاستشفاء، وفضلوا أن يكون ذلك في حمامات أيكس عند جبال السافواه، أو في مياه جبل دور بمقاطعة الأوفرني. وإن كانوا يفضلون أيكس على غيرها لجمال مناظرها ولطف هوائها.

ومرة أخرى هز الأساطين الثلاثة رؤوسهم.

- وينصح السادة أيضا بعلاج لما لاحظوه من الاضطرابات في الجهاز التنفسي، وقد كتبوا تصنيفا مفصلا لذلك الدواء. وفي هذه الحالة يعتقدون أن شفاء فخامتكم أمر سهل إذا ما اتبعتم هذه التوصيات.

ولم يقصر رفاييل في إتباع مشورة الأطباء. وبعد أسبوعين أو ثلاثة كان قد رحل إلى بلدة أيكس الحمامات.

وفيما هو راجع ذات يوم من النزهة في أصيل من أصائل الصيف إلى المنتدى الذي يتردد عليه وعلى صالوناته وموائد قماره السراة والنبلاء من المصيفين هناك، وجد الزحام شديدا فجلس بالقرب من النافذة وظهره إلى جهة الناس.

ومكث رفاييل وحده مدة طويلة غارقا في أفكاره المعتادة، ولا يحاول الربط بينها أو توجيهها وجهة معينة، فالأفكار في هذه الحالة أشبه بالسحاب الخفيف الذي لا يكاد يتميز بلون ولا يتكون حتى ينقشع، والأحزان في هذه الحالة لا تتصف بالعمق أو العنف والمسرات تكون كالبخار الذي لا يلتبس طويلا. فكأن النفس في هذه الحالة في حالة تهويم بين اليقظة والمنام.

واستمرار رفاييل هذه الحالة فاستكان لها مستمتعا بدفء المساء والهواء النقي الذي يهب من الجبال معطرا، وقد أفادته الإقامة في أيكس وهو في هذه الساعة لا يشعر بألم، وكان تهديد غوله المفترس من جلد الفرا قد ألزمه الصمت أخيرا، ولما أوشكت الشمس أن تختفي نهائيا في بحر الأرجوان والذهب فوق قمم الجبال، برد الهواء وسرت فيه الرطوبة، فغادر مكانه ليقفل النافذة. فقالت له سيدة عجوز.

– سيدي هل تتكرم بألا تقفل النافذة؟ إننا نختنق!

فمزقت هذه العبارة التي قيلت له بحدة واضحة غشاء الطمأنينة الذي كان يحيط بالمركيز، وكأنه كان مخدوعا في مسألة الناس له.فرمق السيدة العجوز بنظرة فاترة من ذلك النوع الذي يتقنه رجال السياسة الدهاة، ونادى أحد الخدم، فلما حضر قال له بجفاء :

– أفتح هذه النافذة!

فوقعت هذه الكلمات موقع الدهشة الكبيرة من الجميع، فبدأوا يتهامسون وهم يرمقون المريض بنظرات تتفاوت في تعبيرها عما يجول برؤوس أصحابها، وكأنه قد اقترف وقاحة خطيرة.

أما رفاييل الذي لم يكن قد تخلص من حيائه الأصلي حينما كان شابا مكافحا مغمورا، فشعر بالحرج والخجل، إلا أنه نفض عنه هذا الشعور، وومض في رأسه خاطر مفاجئ، فإذا بماضيه كله يتراءى له كما لو كان رؤيا منفصلة عن الأسباب التي تكمن وراء كل أحساس، وإذا ببصيرته تكتسب بغير مقدمات قدرة خارقة على النفاذ إلى الضمائر والسرائر، وقراءة ما

يجول في خواطر هؤلاء الغرباء الذين يتهامسون عنه، فها هنا رجل شيخ كئيب الصورة لابد أنه حاقد منذ ربح منه المركيز جميع نقوده منذ ليالي. ولم يفسح له بعد ذلك الفرصة كي يثأر لنفسه، أما هذه المرأة الجميلة فتكرهه أيضا لأنه يستثقل ظلها على الرغم من تظرفها معه تظرفا ظاهرا، وغيرهما كثيرون ممن كان يعاملهم بازدراء أو لا يكترث بالتحدث إليهم كأنهم تماثيل ملحقة بالأثاث والرياش، ومنهم كذلك من ينقمون عليه ثراءه العريض وترفه الباذخ.

وفي هذه اللحظة أصابته نوبة حادة من السعال. جعلت تهز جسمه هزا وبدلا في أن يسمع كلمات العطف أو الرثاء، سمع تذمرا عدائيا وسخطا لا يبالي أصحابه أن يكتموه:

- إن مرضه معد ..
- يجب على مدير النادي أن يحرم عليه دخول الصالون
- ليس من اللياقة أن يسعل الإنسان بهذه الصورة
- إنه سيطردنا من هنا إن لم نتمكن من طرده ...

فنهض رفاييل ليتحاشى تلك اللعنات العامة وجعل يتمشى في الأروقة، وكأنه يبحث عن حماية يلوذ بها، وتخير لهدفه امرأة شابة وجدها بمفردها غير مشغولة بشيء فاقترب منها وفي نيته أن يوجه إليها بعض عبارات المجاملة والملاطفة، ولكنها ما إن رأته يقترب حتى أشاحت عنه بوجهها وتصنعت الاهتمام بالنظر إلى الراقصين.

وبلغ من ضيق رفاييل بتلك المعاملة أنه خشى من ضعف إرادته أن يلجأ إلى الطلسم، ولكي لا يتعقد الموقف غادر الصالونات ودخل قاعة البلياردو، وهناك لم يحفل أحد بتحيته أو التحدث إليه بل ولا النظر إليه نظرة مودة.

وبفطرته المجبولة على التأمل والتعمق راح يحلل ويحاول اكتشاف تلك الروح العدائية العامة التي تتجمع ضده من كل جهة. فغلب على ظنه أن السبب هو ما في طبيعة المجتمع الراقي من برود وأنانية.

وبنظرة واحدة إلى الماضي استعاد ذلك النموذج الكامل للأنانية والنفاق وحب التظاهر والأوهو تيودورا، فكما أزدرت تيودورا فاقته المادية، يزدري هذا المجتمع فاقته الصحية، فهو مجتمع معروف لا يعرف ألا الأقوياء والناجحين، أما الفاشلين والمهزومين والمنكوبين، فلا مكان لهم بين أضوائه. إن المجتمع يغفر الرذيلة ولكنه لا يغفر الفقر ولا المرض، ذلك أن الرذيلة على اختلاف أنواعها نوع من الترف والأبهة والسطوة والاقتدار. أما الفاقة والمرض فعجز ...

ولا يلاقي المجتمع العجز في أي صورة إلا بالزراية والسخرية. ولهذا السبب لا يحتقر هذا المجتمع المرأة التي لها عاشق أو أكثر، في حين يحتقر زوجها المخدوع بدلا من أن يرق له ويرثي لحظه العاثر وشرفه المطعون..شعار هذا المجتمع "ويل للمغلوب".

ابقى من الحياة

جعل رفاييل يسترجع تاريخ البشرية كله وهو في حالة كرب شديد، فمرت أمامه صور ملاعب السيرك التي كان يفتتن بها أهل روما وعلى رأسهم الإمبراطور، ويتقابل المصارعون المحترفون بالسيوف والرماح والشباك حتى إذا سقط أحدهم وسلط خصمه سيفه على رقبته وأصبح في يد الجمهور والإمبراطور أن يرفعوا أبهماهم فيحيا أو يهبطوا بإبهامهم فيموت، لم يكن أحد من هؤلاء المغلوبين يظفر بالرحمة أبدا.

الموت للضعفاء! ولكن هل هو ضعيف حقا؟

إن الأديان نفسها تعلم أنه لا حيلة، وإن المجتمع بدنياه المتلألئة لن يفسح مكانا للضعفاء بأي ثمن، وهذا هو السر في صيحة السيد المسيح: طوبى للضعفاء. فإنهم يرثون ملكوت السماء!

ملكوت السماء! يعني أنهم لن يرثوا شيئا من ملكوت الدنيا. ولن يجدوا شيئا من العزاء ولا من النعمة ولا من المكانة في هذه الحياة الأولى.

فطرة لم ينفرد بها الإنسان دون سائر رفاقه على اختلاف مراتبهم في مملكة الحيوان! أهبط ما شئت في سلم الوجود وأدخل حظيرة الدواجن، فإن وجدت كتكوتا يتألم ويتلوى، فتوقع أن يقبل عليه أخوته لا بالطعام والشراب، ولا بالتلطف في السؤال، بل بمناقيرهم ينهشونه ليتموا عليه البلاء!

يتحدثون عن المنبوذين. والنبذ شيء فطري في طبائع المجتمعات جميعا. فأي إنسان تتخلى عنه القوة في جسمه أو في نفسه أو في ماله أو في سلطانه فهو منبوذ. وليتذكر كل إنسان كيف ينقلب الملوك المخلوعون من قمة التمجيد إلى هاوية السخرية والهوان!

إنه ارتضى لنفسه ذلك العقد المجفف مع القوة الخفية المسيطرة على الطلسم، من أجل ماذا؟

من أجل الكرامة والمتعة، فلو كان يرتضي لنفسه أي حياة، حتى حياة الهوان، لما كان هناك لزوم للتفكير في الانتحار هربا من مذلة الفاقة وتجنبا لهوان السؤال. والكرامة أين هي الآن حيث يجد الأعراض والنبذ والاستهتار أينما ولى وجهه؟

فيما مضى تمرد على حبه لتيودورا وأبى إلا أن ينزعه من قلبه، ضنا بنفسه أن يخضع لامرأة لا قلب بها ولا رحمة، ديدنها الأنانية.وها هو الآن وجها لوجه أمام مجموعة كاملة، كل واحد وكل واحدة من أفرادها نسخة من تيودورا بحذافيرها.

استغرقته هذه الأفكار. فلما رفع رأسه ونظر فيما حوله وجد نفسه بمفرده، وقد تسلل اللاعبون من القاعة هربا من سعاله فقال لنفسه:

– لن يكلفني إجبارهم على الهيام بسعالي سوى أن أظهر لهم قدرتي الخارقة!

ثم اتخذ من الازدراء حجابا كثيفا يفصل بينه وبين هذا العالم .. وفي اليوم التالي أقبل كبير أطباء محطة المياه المعدنية ليستفسر عن صحة النزيل

الكريم في عطف ولهفة، فشعر رفاييل بسرور عظيم وهو يسمع تلك العبارات الودية توجه إليه. وأنس إلى هذا الطبيب، لما تبينه في سحنته من طيبة وبشاشة ...

وبعد أن تحدث الرجل مليا مع رفاييل، وفحصه بعناية، قال له:

- يسرني يا سيدي المركيز أنني سأبدد عن نفسك الكآبة ، ففي اعتقادي أن نطمس الأطباء البارزين الذين أحترم علمهم كثيرا قد أخطأوا في تشخيص مرضك، ولم أصارحك بهذا الرأي إلا بعد أن انتظرت مدة كافية تخولني التعرف إلى بنيتك تعرفا سديدا يسمح لي بالجزم.

- ماذا تعني يا سيدي؟

- أعني بالضبط أنه إذا لم يقع لك حادث قضاء وقدرا، فستعيش كما عاش أبو المعمرين متوشالح. فرئتاك يا سيدي المركيز في منتهى الصحة، أشبه بكور الحداد، ومعدتك تخجل معدة النعامة، ولكن ..

- ولكن ماذا يا سيدي؟ تكلم

- ولكن أن بقى سيدي المركيز في هذا الضغط المرتفع فإنه يعرض حياته للخطر، ولا شك أن سيدي المركيز سيفهم مرادي بغير حاجة إلى كثير من الشرح. ذلك أن الكيمياء أثبتت أن التنفس يحدث عند الإنسان عملية احتراق مماثلة تماما لاحتراق الفحم والخشب، وأنت يا سيدي من أصحاب المزاج العاطفي العصبي.ومستوى الاحتراق عندك مرتفع، فالهواء الجاف في المناطق الجبلية كأنه يحرق بنيتك حرقا ويستهلكها بسرعة، وأنسب الأهوية لك هواء الوديان وهواء الريف ولا سيما

بالقرب من الخطائر، فإذا شاء سيدي المركيز أن يختار مواطن للمياه تصلح لاستشفائه، فعليه بالمصحات التي توجد في مراعى ألمانيا، مثل بادن بادن، وإن كانت إنجلترا لا تضايق سيدي المركيز بكثرة ضبابها، فسيجد فيها ما يناسبه من بقاع الريف، أما هنا يا سيدي المركيز ونحن على ارتفاع آلاف الأقدام فوق مستوى البحر الأبيض المتوسط. فبقاؤك معنا بمثابة كارثة على صحتك، وهذا رأيي الفني لوجه المهنة ذكرته لسيدي المركيز بداعي الأمانة، متجاهلا مصلحتنا، لأن اتباع سيدي المركيز لهذه النصيحة سيترتب عليه ولا شك حرماننا من التمتع بإقامته لدينا.

والحقيقة، أنه لولا العبارة الأخيرة من عبارات الطبيب لظل رفاييل معتقدا أن الطبيب يحدثه بإخلاص، ولبقي مخدوعا في طيبته الظاهرية، أما وقد قال تلك الكلمة الأخيرة لم يعد هناك شك في أنه أوفد من مدير المصحة بإيعاز أو إلحاح من أولئك المستشفيين المرحين الذين يتخذون المرض مظهرا من مظاهر الوجاهة الاجتماعية . وكان هذا الخاطر كافيا كي يحزم رفاييل أمره، ويخوض المعركة التي بعث هذا الطبيب ليحمل نذيرها النهائي، فقال له باسما:

- ما دمت يا سيدي ستشعر بكل هذا الاسى لفراقي إياكم فسأبذل قصارى جهدي، في الاستفادة من نصيحتك الفنية بخصوص الضغط ودرجة الحرارة، والرطوبة، مع البقاء هنا ، حتى لا أسبب هذا الكدر. ومنذ الغد سأكلف رجال دائرتي بتشييد منزل على وجه السرعة نتمكن فيه من تكييف الهواء حسب إرشاداتك.

ولم يسع الطبيب أمام نظرة رفاييل الثاقبة وابتسامته الصفراء سوى أن يستأذن في صمت وينصرف من غير أن ينبس بنبت شفة.

وخرج المركيز يتنزه على شاطئ بحيرة بورجيه الجميلة التي تحيط بها الجبال، وخيل إليه وهو ينظر إليها من فوق أنها قطعة ضخمة من التيركواز النادر، وشغل أمدا طويلا بمراقبة تغير الألوان والانعكاسات الضوئية بين الماء والجبال في السفوح والقمم.

إذ وجد في هذا الشعور الفطري بلسما لجراح نفسه، حتى لقد نسى من حوله من المتنزهين، فلما نظر حوله وجد نفسه وحيدا ثم سمع حفيف ثوب من الحرير ووقع أقدام خفيفة فنظر بطرف عينه ورأى شابة من مرافقات كبار السيدات تقف مترددة كأنها تفاوض نفسها في التحدث إليه. فتقدم نحوها، وإذا بها ليست صغيرة السن كما توهم، وإنما هي عانس جافة العود لا يقل سنها عن ست وثلاثين سنة، فقدت الثقة بنفسها فأثر ذلك على رشاقة حركاتها.

ولبثت الفتاة متحيرة برهة لا تدري كيف تبدأ الكلام، ثم انفجرت فجأة:

– لابد أن أخبرك يا سيدي

– بماذا يا آنسة؟

– احذر أن تدخل المنتدى، فحياتك في خطر إن فعلت.

وتراجعت بظهرها كأنما تعرض شرفها لشيء جسيم بمجرد هذه

الكلمات، بيد أن المركيز استوقفها واستوضحها باسما:

- أرجو يا آنسة أن تتكرمي بمزيد من الإيضاح، ما دمت قد تنازلت ...

- لولا خوفي الشديد عليك يا سيدي لما جازفت بإغضاب سيدتي الكونتس. فإنها لو علمت أنني أنذرتك ....

- ومن الذي سيخبرها بذلك؟

- معك حق يا سيدي، ولكنها مجازفة على كل حال كي تحتاط لنفسك ...

- وما هو كنة هذا الخطر الذي يتهدد حياتي في المنتدى؟

- هم جماعة من الشبان قر رأيهم على طرد سيدي المركيز من أيكس. وتواعدوا فيما بينهم أن يثيروك ويرغموك على المبارزة وصحتك لا تسمح ...

وفي هذه اللحظة دوى صوت المركيزة العجوز تنادي مرافقتها من منعطف الطريق، فأسرع المركيز على الفور يقول لها:

- إني شاكر لك عظيم فضلك يا آنسة ...

وسرعان ما اختفت العانس المسكينة عن ناظريه، فقال ساخطا:

- لم يعد يعطف علي إلا هذا الطراز، فهي منبوذة مثلي من المجتمع، محرومة من حظيرة الكرامة والتقدير. وهذا سر عطفها، أي أنها تشعر أننا من طراز واحد وليس بعد هذا متسع للهبوط ولئن كنت حريصا على البقاء، فإني أرى الكرامة أبقى من كل بقاء ولكن ماذا لو أن هذه

الفتاة لم تكن صادقة في بواعثها، وكانت رسولا بعث به هؤلاء الشبان ليخوفوني مؤامراتهم ومبارزتهم، كما أرسلوا الطبيب من قبل ليخيفني بالموت ويخدعني بالنصيحة الفنية!

الراجح أنها تمثيلية أعدوها وكلفوا هذه الفتاة بأداء ذلك الدور كي يتلهوا بعد ذلك بمراقبة آيات الذعر على وجهي، وبتجنبي دخول ناديهم جبنا أمام وعيدهم المزعوم وهو لا شك يقدرون أن مريضا مثلي لابد أن يفزعه تصميم فتيان مثلهم على التحرش به والاقتراع على أيهم يسفك دمه.

ولكن كبرياء رفاييل عاودته، وسأل نفسه:

- أأسمح لهؤلاء الحقراء التافهين أن يثيروني ويحركوا حياتي ويوجهوها؟ هل أكبر أقدارهم إلى هذا الحد حقا؟

ولكنه تذكر وهو في ثورة الغضب لحماسته أن الذباب إذا استهتر بالإنسان نكد عليه عيشه، وأنه إذا بلغ الأمر بالمرء أن يترك الذباب يستهين به، فما انتفاعه بحياته بعد ذلك؟

وهكذا اختار المركيز لنفسه طريق الكرامة على طريق الحياة، وعلى هذه النية صح عزمه أن يتوجه في مساء ذلك اليوم نفسه إلى النادي ...

دخل المنتدى تلك الليلة رافع الرأس، ولم يجلس، بل ظل واقفا واتكأ إلى رخام المدفأة في الصالون الرئيسي، وراح يدرس الوجوه من حوله وكأنه يتحدى المجموعة كلها بهدوئه وغطرسته، فهو أشبه في تلك اللحظة بكلب البولدج الواثق من قوته، الذي ينتظر أن تصل المعركة إلى حيث يقف، من

غير أن يجهد نفسه بنباح لا جدوى منه ...

وبعد قليل أخذ يتمشى في صالون القمار، ما بين باب الدخول وباب قاعة البلياردو، حريصا على أن يلقى في الحين بعد الحين على جماعة من الشبان كانوا يتبارون في لعبة البلياردو.

وبعد بضع جولات سمعهم يذكرون اسمه، وبالرغم من أنهم كانوا يتحدثون بصوت منخفض إلا أن رفاييل أدرك بسهولة أنه كان موضوع خلاف فيما بينهم، ثم لم يلبث ذلك الخلاف أن احتدم فتمكن من سماع بضع عبارات ارتفعت بها أصواتهم.

- أنت؟

- نعم أنا!

- إني أتحداك!

- أتراهنني؟

- أؤكد لك أنه سينصرف.

وفي اللحظة التي هم فيها فالنتان مدفوعا بالرغبة في معرفة موضوع الرهان، أن يتقدم ليسمع بقية المحادثة من مكان أقرب.

إذا بشاب طويل القامة قوي البنية تبدو عليه إمارات البأس والعافية، ولكن نظرته فيها تلك الوقاحة الحيوانية التي يتمتع بها من يعتمدون على قوتهم البدنية، خرج هذا الشاب من قاعة البلياردو وقال لرفاييل بلهجة شديدة الهدوء:

- سيدي. لقد ندبت نفسي لإبلاغك شيئا يبدو أنك تجهله أو تتجاهله.
- وما هو أيها السيد؟
- إن وجهك وشخصك ينفران هنا جميع الناس، ولا سيما أنا .. ولا شك أنك من حسن التهذيب بحيث لا تتأخر عن التضحية بنفسك في سبيل الخير العام، ولهذا أرجو منك يا سيدي ألا تأتي بعد الآن إلى المنتدى.

فأجابه رفاييل بكل برود:

- سيدي. إن هذا المزاح الذي كان شائعا في ثكنات العهد الإمبراطوري قد أصبح الآن مبتذلا سمجا.
- لست مازحا وها أنا أكرر عليك أن صحتك ستعاني كثيرا من المضار بإقامتك هنا والحرارة والأضواء وهواء الصالون المقفل، والجماعة كلها، ضارة بمرضك.
- وأين درست الطب؟
- لقد حصلت على البكالوريوس في الرماية من معهد ليباج بباريس، وعلى الدكتوراه لدى سيريزييه ملك السيف.
- حقا؟ أمامك إجازة أخيرة يجب أن تحصل عليها مهما أتعبتك، وهي دبلوم قانون التهذيب واللياقة، وبعدها ستكون رجلا كاملا.

وفي هذه اللحظة خرج جميع الشبان بين باسم وواجم، أما من كانوا يلعبون الميسر فتركوا موائدهم وأوراق اللعب ليتبعوا هذه المشاجرة الطريفة

في اهتمام زائد، فلم يبق أحد محتفظا بهدوئه الكامل وسط ذلك العالم المعادي سوى رفاييل الذي لم تبدر منه بادرة غضب، فاغتاظ خصمه وقال:

- سيدي. لم يعد مسموحا في أيامنا هذه أن يصفع الإنسان رجلا، ولكني لا أجد لفظا يكفي لوصف سلوكك المتسمم بالجبن .

وعندئذ تدخل جملة شبان فيما بين الخصمين صائحين:

- كفى كفى! أجلا التفاهم إلى الغد.

ولما كان رفاييل يعتبر نفسه المتحدي، فقد بدأ بالخروج حسب الأصول بعد أن وافق على ملاقاة خصمه بالقرب من حصن بودرو، في مرعى صغير بالقرب من طريق شق حديثا، يستطيع الغالب أن يصل منه إلى ليون ليفر من طائلة القانون.

لم يعد أمام رفاييل بعد ذلك التحدي سوى الإذعان لرغبة ذلك المجتمع بلزوم فراشه أو مغادرة أيكس، أو أن ينتصر بالثمن الذي يعرفه.

وفي الصباح التالي، في الساعة الثامنة تماما، وصل خصم رفاييل أولا، ومعه شاهداه وطبيب للإسعاف إلى ساحة المبارزة، ولما رأى السماء صافية والجبال والمروج في أبهى حلل الإشراق، قال بسرور وهو لا يشك في نتيجة المبارزة:

- هذا مكان بديع جدا، والجو من أنسب ما يكون للمبارزة، هل إذا جرحته في كتفه سيكفي ذلك كي يلزم فراشه شهرا يا دكتور؟

- على الأقل، ولكن لا تعبث بأصابعك هكذا وإلا قل تحكمك فيها، وانتهى الأمر بقتل صاحبك بدلا من أن تجرحه كما تنوي.

وسمعت ضجة عربة كبيرة من عربات الرحلات، تجرها أربعة جياد مطهمة، فعجب الشاهدان، وصاح خصم فالنتان:

- يا له من شخص غريب الأطوار! يحضر ليموت في عربة سفر والملاحظ أن المبارزات مثل المقامرة. تؤثر فيها أتفه الحوادث على خيال الطرفين المتهمين بالنتيجة، ولهذا وقف الشاب ينتظر وصول تلك العربة التي وقفت في الطريق الجديد إلى ليون بقلق ولهفة، ثم نزل جوناثاث بتثاقل طبيعي في مثل سنه ثم أعان رفاييل على النزول في رفق يكاد يشبه حنان الأمهات، وأقبل الأثنان من خلال الطرق الصغيرة المتشعبة بكل بطء، وفالنتان يعتمد على ذراع خادمه العجوز الذي يعرج بشدة بسبب النقرس، فكأن الأثنين عجوزان في درجة واحدة من التهدم، هدمت السن أحدهما وهدمت الآخر الهموم والأفكار.ولما وصل رفاييل إلى حيث يقف الأربعة في الانتظار قال لخصمه:

- سيدي، لم أنم طول الليل.

وكانت لهجته ونبرته مرعبة، فارتعد الشاب وشعر بخطئه، وتولاه الخزي الخفي لسلوكه، وسكت الجميع، فساد صمت مشجون بالقلق والتوتر، إلى أن قطعه المركيز بقوله:

- لم يفت الأوان كي تقدم لي ترضية خفيفة، فإن لم تقدم لي هذه الترضية

يا سيدي فموتا ستموت! إنك تعتمد حتى الآن على براعتك، ولا تتراجع أمام مشروع مبارزة تعتقد أن كل مزاياها محصورة في يدك .. ومع هذا فأنا يا سيدي مطبوع على الكرم ،ولهذا سأطلعك على تفوقي الخارق في موقفنا هذا. فإني أملك قوة مروعة، أستطيع أن أقضي على براعتك، وأغشي بصرك، وأرعد يدك، وأقيم قلبك وأقعده، بحيث يكفي كي أقتلك مجرد رغبتي في ذلك، بيد أني لا أريد أن تضطرني إلى استخدام هذه القوة الاستثنائية. إذ أنها تكلفني باستخدامها غاليا جدا، حتى يجوز أن يقال أنك لن تكون وحدك الضحية، فإن لم تقبل تقديم الترضية لي، ثق أن رصاصتك ستطيش وتذهب إلى ماء هذه البحيرة رغم تعودك على القتل بالرصاص، أما رصاصتي أنا فستصيب قلبك من غير تصويب.

فصرخ الشاب يخاطب أحد شاهديه:

- أسكته! إن صوته يلوي أحشائي!

فصاح الطبيب والشاهدان يخاطبون رفاييل:

- كفى يا سيدي. كلامك لا طائل تحته

- أيها السادة أني أقوم بواجب أمام ذمتي، فهل كتب هذا الشاب وصيته؟

- كفى! كفى!

وسلط عينيه على خصمه الذي بدا كما لو كان عصفورا أمام ثعبان

يخدره بنظراته، حتى جف ريقه وقال لصديقه:

- أعطني ماء، فإني عطشان.
- هل أنت خائف يا شارل؟
- نعم، فعين هذا الرجل تسمرني
- هل تريد أن تقدم إليه اعتذارا؟
- فات الأوان!

وقاس الشهود المسافة ومقدارها خمس عشرة خطوة بين الخصمين. وتم توزيع المسدين، ليحشو كل منهما مسدسه بنفسه. وإذا صديق الشاب يصيح به.

- ماذا دهاك يا شارل؟ أنك تضع الرصاصة قبل أن تضع البارود!

فغمغم الشاب يائسا:

- إني هالك، فقد وضعتموني في مواجهة الشمس.

وسمعه فالنتان فقال بصوت رهيب وهو يحشو مسدسه بكل بطء، غير مكترث بإشارة الابتداء، ولا بالعناية التي يبذلها خصمه في التصويب.

- بل إن الشمس خلفك أيها الشاب

فكان لهذه الثقة غير الطبيعية أثرها الشنيع في الواقفين جميعا، وكي يظهر رفاييل ثقته الكاملة في قدرته غير الطبيعية، جعل يتحدث إلى جوناثاث غير ناظر إلى خصمه الذي أطلق الرصاص مرتين، ولكن

الرصاصتين اصطدمتا بفرع شجرة وسقطتا في البحيرة.

وأطلق رفاييل مسدسه اعتباطا، فإذا الرصاصة تستقر في قلب خصمه، ومن غير أن يلقي بالا إلى سقوط الشاب مضرجا بدمه، أسرع بإخراج الطلسم ليرى كم من عمره خلفته حياة مخلوق بشري، فوجد الطلسم أضحى لا يزيد في حجمه على ورقة شجرة البلوط.

وفي مساء ذلك اليوم كان قد وصل إلى قلب فرنسا، وسلك طريق أ فرني ليذهب إلى مصحة المياه المعدنية في مون دور ...

وطوال تلك الرحلة كانت نفسه المنكود تجتر طعم ذلك النصر، وكأنه أشعة الشمس الباهتة التي تخترق بعد جهد جهيد طيات السحب الكثيفة لتصل إلى واد معتم ...

وتراءت له بمراجعة الفترة الأخيرة من حياته حقيقة غريبة: إن امتلاك القدرة، مهما كانت هذه القدرة عظيمة، ليس شيئا من دون الدراية الصحيحة بكيفية ممارستها، فما أكثر القدرات التي يبددها أصحابها هدرا بعدم تمتعهم بحكمة استعمالها، فيضرون بها أنفسهم بدلا من أن ينتفعوا بها، فمثل القدرة العظيمة كمثل السلاح القوي، يستفيد منه من أوتي معه الحنكة في استعماله على خير وجه ولخير قصد، أما في يد الطفل الأبله، والشاب الغر، والمجرم المفتون الجاهل، فهو وبال على نفسه وعلى الناس.

دعه لي .. إنه لي وحدي!

وفي مياه مون دور تجددت المأساة، فإذا بالناس هناك يتحاشونه ويفرون منه فرار السليم من الأجرب، وكأنما يتشممون ريح الموت تفوح منه عن بعد، فكرة الناس، وأصبح العداء بينه وبينهم متبادلا مفروغا منه.

وكانت مغامرته الأخيرة قد زهدته في المجتمع. فجعل همه الأول أن يبحث عن مستوى منعزل بالقرب من تلك المياه المعدنية. وأحس بغريزته حاجته إلى الاقتراب من الطبيعة. فالنفس الإنسانية تهدأ وتطمئن في البيئة النباتية، سواء في الريف أو في الغابات.

وعلى بعد نحو نصف مرحلة من القرية راح رفاييل يبحث فوجد نفسه في مكان بدا للطبيعة أن تخفي فيه كنوزها الثمينة.فالجمال الريفي رائع متعدد الألوان. فلما أعجبه هذا المكان الجميل المنعزل قرر الإقامة فيه.وفوق أجمة تحتل ربوة أي بيت الأسرة التي تزرع تلك البقعة.

كان بيتا بني من الجرانيت الجبل، ولكن جدرانه لا تكاد تبدو للعين من غزارة الكروم والياسمين واللبلاب التي تزاحمت بين الأرض والسقف المنحدر. وكان أجمل ما في هذه النباتات أن سكان البيت لا يلقون إليها عنايتهم، فتركوها على فطرتها حتى انتشرت وتكاثرت في غير نظام.

وعن كثب من العتبة رأى رفاييل قطة مستلقية في الشمس ومن حولها بقايا من قشر البطاطس. وفي الجهة الأخرى من البيت شاهد حاجزا يحيط

بحظيرة للدواجن، كي يحول بين تلك الطيور والعبث في الحديقة المخصصة للخضر. ومن وراء حديقة الخضر كانت الربوة تنحدر انحدارا عموديا، حتى يخيل إلى من يسكن هناك أن العالم كله ينتهي في هذا المكان.

ما أشبه ذلك المسكن بأوكار الطيور التي تبنى فوق قمم الجبال، تبنى بفن أملته الغريزة فأجتمع له جمال الفطرة وإتقان الصناعة.

فها هنا لا شيء غير الخضرة وبركة الماء الصغيرة المتجمعة من ذوبان الثلوج، ثم السماء.

عفوا! بل هناك أيضا أبقار جميلة هادئة وادعة التفت نحو رفاييل وراحت ترمقه بعيونها الكبيرة التي تفيض طيبة ورقة وفهما.

وعن كثب من تلك الأبقار عنزة بيضاء تنظر بحنو إلى صغارها من الجداء المنقطة باللون البني.

لا شك أن العافية تتفجر هنا من كل شيء، لأن كل شيء يرضع من أثداء الطبيعة الصافية الدسمة، وينام في أحضانها من غير مبالاة أو هم.وكان الأسرة التي تسكن هذا الفردوس الأرضي تتكون من الجد العجوز الذي جاوز المائة ولم يزل يعمل في الحقل. ومن أم تكاد الصحة تطفر من جلدها الأسمر وبنيعها الممتلئة في رشاقة وقوة.

وطفل كأنما كل خد من خديه تفاحة كبيرة ناضجة، أما والد الطفل فكانت قد حصدته آلة الحرب، إلا أن الفرق الهائل في السن بين الجد والطفل لم يقف حائلا دون اللهو المشترك بينهما، ودون مرح متشابه لديهما، فهذا العمر نشأ وعاش وهو يشعر بالطفولة على الدوام في كنف

أمه الطبيعية التي لم يعرف سواها.

واستقبلت الفلاحة رفاييل بترحاب. وقدمت إليه في كوب نظيف لبنا طازجا لم يفارقه دفء الضرع. وأنس رفاييل إلى حديثها الذي يفيض عن فطرة صادقة ساذجة، واستقر رأيه أن يقضي ما بقى له من أيام معدودة في هذا المكان.

أجل إن الذي باع حياته ليشتري مظاهر الدنيا خرج من هذا كله ليقنع في نهاية المطاف ببساط من عشب، ورقعة من سماء، وهدوء بين الحيوان والنبات بعيدا عن ضجة العمران وذلاقة العلم، وكل ما هو معقد وسخيف ومصطنع. وهنا أرتضى أن يكون فراشه الأثير.

وقبل حلول المساء كان جوناثاث قد أتى بحقيبة فيها أقل ما يلزم مولاه من الضروريات. وحرم عليه بعد ذلك أن يعود إلا إذا أرسل في طلبه. وبعد رحيل جوناثاث بدأ ينسى كل صلة له بالدنيا ويرتد إلى الطفولة بصفحة عقله البيضاء.

وبعد بضعة أيام خيل إليه من انشراح حالته النفسية أنه نجا من المصير الذي يترصده. فازدادت سعادته واستمساك بمقامه الجديد.

وذات يوم وكان قد استمرأ الرقاد في فراشه إلى الظهر في كسل ككسل القطط حين تعجبها حرارة الشمس، وهو بين اليقظة والمنام.وإذا به يسمع لأول مرة صوت جوناثاث يتحدث إلى ربة الدار، وهما لا يدريان أنه مستيقظ، فسمعها تقول له:

- حالته كما هي، ليست أسوأ ولا أحسن، ظل يسعل طول هذه الليلة

سعالا يفتت الكبد، إن هذا السيد المسكين يحيرني أنا وشيخي، فنحن لا ندري من أين يأتي بكل هذه القوة على ذلك السعال العنيف، ونظل في قلق إلى الصباح نخشى أن نجده في فراشه جثة هامدة. ولكننا معجبان أشد الإعجاب بتجلده وعدم شكواه، وهو في الغالب لا يشعر بخطورة حالته وهذا من حسن حظه، لا تبك يا سيد جوناثاث. فمن الخير له أن يتخلص من هذا العذاب، إن من يحب هذا السيد يطلب له الموت .. ومع هذا فلا حد لمكارم الخالق.

وعندئذ نهض رفاييل ووقف على عتبة الباب. ثم قبض على عنق جوناثاث وكاد يخنقه، وهدده بالقتل إن عاد مرة أخرى من غير أمره، ولكن في الأيام التالية شهدت جوناثاث يتسلل إلى حيث تلاقيه الفلاحة في منتصف الربوة لتفضي إليه بآخر أخبار مولاه ..

وبعد بضعة أيام رأى رجلين يكتسيان السواد يحومان حوله وهو جالس في ظل شجرة وهما يفحصانه خلسة، ثم تصنعا أنهما يبغيان النزهة وشرعا يلقيان عليه أسئلة كان يجيب عليها باقتضاب، إذ عرف فيهما قسيس القرية وطبيبها، ولم يشك جوناثاث هو الذي أرسلهما، وأدرك أن الفلاحة أنذرته باقتراب موت مولاه.

وعندئذ خيل لرفاييل أنه يسمع دقات الأجراس تصاحب موكب جنازته. ونظر في الأشجار والصخور من حوله فخيل إليه أنها واجمة. وإذا كل ما كان منذ أيام يبشره بطول الأجل، قد بات ينذره بحلول الأجل ...

وفي اليوم التالي كان السحر قد بطل عن تلك الجنة الأرضية، فرحل

إلى باريس، ليعود إلى قصره .. بعد أن لم تعد في الغربة جدوى.

وبعد يوم واحد وجد نفسه في حجرته، جالسا في ركنه المعهود أمام المدفأة، وقد أمر بإشعال نار فيها لأنه كان يشعر بالبرد أبان الصيف، وقدم له جوناثاث الخطابات المتجمعة، وكانت كلها من بولين، تحمل إليه نغمة واحدة متكررة، هي الشكوى من أنه يخفي عنها محل إقامته. وإن محاميه هو الذي يتلقى الخطابات منها ولا يريد أن يصرح لها بعنوانه وأنها بهذا اضطرت أن تقيم في بيت والديها.

"لا شك يا عزيزي رفاييل أنك أردت بي الخير، كي تجنبني ألما أو حزنا، ولكنك بهذا ستقتلني يوما من غير قصد، فأرجو منك ألا تقيم بيني وبينك هذه الفواصل. وأعلم أنني من الصلابة بحيث أستطيع تحمل أقسى ألوان العذاب والرزايا ما دمت بالقرب منك.

فالشجن الذي تسببه لي ليس شجنا ما دمت تثق بي ولا تبعدني عنك، وثق أن لك في فؤادي من الحب أكثر من كل ما أظهرته لك.

وكل شيء عندي يهون إلا البكاء بعيدة عنك وأنا لا أعلم أين أنت.."

هذه فقرة واحدة من كثيرات من طرازها أو أشد منها تأثيرا في النفس، فلما فرغ من القراءة، غامت عيناه بالدموع، ثم أرسل في طلب طبيبه الخاص بيان شون، فقال له:

- أتستطيع أن تركب لي شرابا يجعلني في حالة تهويم مستمرة؟ ولا يضربني.

- ليس أيسر من هذا يا سيدي المركيز. ولكن يجب على الأقل أن تظل مستيقظا بضع ساعات كل يوم كي تتناول طعامك.

- أتقول بضع ساعات يا رجل؟ كلا كلا! لا أريد أن أنهض من هذا النعاس المستمر أكثر من ساعة واحدة في اليوم.

- وما هدفك من هذا؟ فالنوم حياة على كل حال.

ثم أصدر المركيز أمره إلى جوناثاث ألا يدع أحدا يدخل عليه حتى ولا بولين. وعند انصراف الطبيب سأله الخادم العجوز همسا:

- هل هناك في أجله بقية؟

- قد يعيش طويلا أو يموت هذا المساء. ففرص الحياة والموت عنده متساوية. وعلته نفسية قبل كل شيء، وأهم شيء هو تسليته باستمرار.

- تسليته؟ إنك لا تعرفه يا سيدي، لم يعد شيء يسليه أو يثيره، لقد رأيته يقتل منذ يومين إنسانا من غير أن يطرف له جفن.

ولبث رفاييل بضعة أيام غارقا في سبات ذلك النوم الصناعي بفضل شراب الأفيون الذي يتعاطاه. والذي تحول بفضله إلى نوع من الحيوان الكسول الخامل. ولم يعد يدرك فرقا بين الليل والنهار وفي الساعة الثامنة من كل مساء ينبه فيخرج من فراشه من غير أن يكون في كامل الصحو، فيشبع جوعه إلى الطعام، ويتخلص من فضلات أمعائه، ثم يأوي إلى فراشه مرة أخرى في الحال.

وهذه الأوقات التي يتحرك فيها لا تحمل إليه معاني واضحة.وإنما كل شيء حوله ظلام في ظلام وصمت يفضي إلى صمت.

وذات مساء تنبه بعد موعده المعتاد فلم يجد عشاءه حاضرا فجذب الجرس واستدعى جوناثاث وصرخ في وجهه:

- أخرج من بيتي. لقد وهبتك أملاكا وجعلتك غنيا. وستكون سعيدا في أواخر أيامك. ولكن لا أريد أن أتركك تتصرف في حياتي بعد اليوم! كيف أيها الشقي لا تعد لي طعامي وأنا أشعر بجوع شديد؟ أجب!

فابتسم جوناثاث ابتسامة غامضة وتناول شمعة كان نورها يتراقص في الحجرة الواسعة المظلمة، وقاد مولاه إلى قاعة فسيحة فتح بابها فجأة. فغمر النور الباهر من مئات الشموع التي تزدان بها الثريات الذهبية وجه رفاييل واستولت عليه الدهشة، وشيئا فشيئا تبين أصدقاءه الذين ارتدوا أبهى حللهم، ومعهم غانيات فاتنات، بضات النحور، كاشفات الصدور، في أبهج زينة.

وهتف الجميع لرفاييل بمجرد ظهوره بينهم، وهاجمت أنفه وأذنه أصوات الموسيقى مختلطة بالعطر المسكر، ففهم أن هذه خطة جوناثاث في تسليته والترفيه عنه. فنظر إليه شذرا وجعلت جوارحه ترتعد غضبا، وعاد يتعثر إلى مخدعه حيث تجرع كمية مضاعفة من المنوم ورقد في فراشه.

واقتربت الساعة من منتصف الليل. ولسبب لا يصل العلم إلى معرفته أشرق وجه رفاييل بجمال ناضر وهو نائم في تلك الساعة، فزينت خديه البيضاوين وردة فاقعة اللون، ولمعت في جبينه العريض إمارات النبوغ،

وكأن وجهه كله روضة مزهرة في لون الربيع، فالهدوء يسود ملامحه، كطفل ينام مطمئنا بين ذراعي أمه وتبددت حقيقة أحلامه على صوت كرنين الفضة يسأله:

- أهذا أنت أخيرا؟

فنظر ليرى في ضوء المصباح بولين جالسة على حرف فراشه. رآها أشد جمالا بفعل الغياب وبفعل الألم. فبهت لرونق هذا الوجه الأبيض كأنه زنبقة من زنابق الماء، يطوقه تاج من الشعر الأسود الغزير. وقد وقفت بين المقلة والجفن من الدمع مثل حبة اللؤلؤ، تتردد بين الأقوال والانسياب.

- لا تحزن فقد نسيت كل شيء! لا متسع في صوتي للعتاب ..كل صوتي وقف على حبك والفرح بلقائك. ما أجملك يا ملاكي الحبيب! لم أرك في حياتي بمثل هذا الجمال! يا لك من شرير! ذهبت تبحث عن الصحة من دوني .. أكنت تخافني؟

- أهربي! أنجي بنفسك! قومي! فإنك إن بقيت هنا كان في ذلك هلاكي. أتريدين لي الموت؟

- الموت؟ وهل تستطيع أن تموت من دوني؟ لا تتحدث عن الموت فأنت شاب! وأنا أحبك! أحبك!

وقبضت على يديه في حماسة عاطفتها لتضعهما على قلبها، فصاحت:

- باردتان! هب هذا حلم؟

فجذب يده منها وأخرج من تحت الوسادة الطلسم، وقد انكمش

حتى صار في حجم الظفر، وأراها إياه:

- بولين، يا حلم حياتي الجميل، وداعا!
- وداعا!
- نعم، فلهذا هو الطلسم الذي ينفذ رغباتي وتمثل رقعته مدة حياتي، انظري ماذا تبقى لي منه، فإن نظرت إلي مرة أخرى بهذا الشوق، تحرك قلبي لك، وكان في ذلك موتي ....

فظنت المسكنة أنه جن، وتناولت منه الطلسم وراحت تتأمله في ضوء المصباح وقد علا محياها الجميل الرعب واللهفة، فازدادت جمالا ولم يستطع المقاومة، إذ انفجرت براكين الذكريات العذبة في سريرته، فأشعلت كوامن وجده.

- بولين! تعالي!

فخرجت من حلق المسكينة صرخة فزع، وقد اتسعت حدقتاها وقطبت حاجبيها، إذ قرأت في عيني رفاييل رغبة من تلك الرغبات المجنونة. وما كان هذا ليفزعها وهي التي كانت ترى حبه لها غاية مناها، لولا أنها شهدت بعيني رأسها أنه كلما اتضحت آيات الرغبة على محيا حبيبها، جعلت تلك القطعة من الجلد تتداخل حتى دغدغت باطن يدها.

ومن غير تفكير أسرعت بالفرار إلى الصالون المجاور، وأوصدت بابه عليها. فقفز رفاييل نحو الباب وجعل يطرقه بقبضته ويصيح في جنون:

- بولين! بولين! أحبك. أعبدك أريدك .. إني ألعنك أن لم تفتحي! أريد

أن أموت وأنا بين ذراعيك!

وبدفعة من دفعات القوة ومضات الحياة الأخيرة حطم الباب.

وإذا به يرى محبوبته نصف عارية تتلوى فوق أريكة.كانت بولين المسكينة اتخذت من الشال الذي يغطي كتفيها خناقا تشده بأقصى قوتها لتنتزع روحها من جسدها. "يجب أن أموت إن أيامه تتناقص لأنه يريدني. سيعيش إذا مت. يجب أن أموت كي يعيش ..."

وكان شعرها منتشرا فوق كتفيها العاريين، وملابسها مضطربة وهي تنازع نفسها لتلقي بروحها بين أحضان الموت. وقد امتلأت عيناها بالدموع وفاضت على وجهها المحتقن، وهي تتلوى في يأس مجنون ...

"ماذا تريد؟ دعه لي! إنه لي وحدي!"

وفي يأس مجنون أيضا بدأت هذه الصورة تتراقص أمام عيني رفاييل، فتزيده جمالا وتزيد احتضاره عذابا، وألقى بنفسه عليها كما ينقض الصقر وراح يمزق الشال بأظافره وأسنانه وهي تشد عليه بقبضتيها.

واقتتلت الكلمات على فم مريض مجنون يحاول أن يعبر عن ألف أحساس متضارب من التعلق بالحياة ومن حب بولين، ومن الندم ومن الشك، فكانت الألفاظ تخرج من حلقه كالفحيح تارة، وكالنشيج تارة أخرى، وكالحشرجة في معظم الأحيان .. كانت الأصوات تخرج من أحشائه المحترقة لا من صدره.

وأخيرا أعياه عجزه وغاظه ألا يجد فسحة من لحظاته ولا من قوته يعبر بها عن لعنته، وعن حبه، وعن رغبته وحرمانه، فانقض على نحرها ينشب أسنانه فيه.

وأقبل جوناثاث مروعا من هذه الضجة المجنونة. وحاول أن ينتزع جثة مولاه بين ذراعي الأرملة المرزوءة. وهي تضرب وجهه وتصرخ فيه:

- ماذا تريد؟ دعه لي! إنه لي وحدي! أنا التي قتلته! لن يأخذه اليوم مني أحد! لن يأخذني منه أحد.

الفهرس